
من الشرق والغرب
نافذة على الفكر العالمي الحر
روميو وجوليت
بقلم : بول ريبو
ترجمة : حبيب جاماتي

من الشرق والغرب

قصة روميو وجولييت

من هما العاشقان اللذان
خلد شكسبير اسميهما..؟

بقلم: بول ريبو
ترجمة: حبيب جاماتي

مقدمة

قصة روميو وجولييت مزيج من الاسطورة والتاريخ، والحقيقة والخيال . قصة فتى وفتاة عاشقين ، رواها كتاب وتغنى بها شعراء، جيلا بعد جيل ، منذ القرن الرابع عشر الى أيامنا هذه : مازوتشيو دى سالرنو ، لويجى دا بورتو ، دانتى البجييرى ، كليزيادى فيرونى، ماتيو بانديللو ، أرثر بروك وغيرهم . وجعل شكسبير من مأساة العاشقين اللذين راحا ضحية الحب ، موضوعا لاحدى مسرحياته الخالدة ، بعنوان « روميو وجولييت » وهى أروع ماجادت به القرائح وسطرته الاقلام ، فى هذا الموضوع . وقد ظهرت مسرحية شكسبير فى آخر القرن السادس عشر . واقتبس منها جول باربيين وميشيل كارى ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، موضوع رواية غنائية وضع موسيقاها شارل جونو .

وترجمت المسرحية الى العربية بعنوان «شهداء الغرام» ومثلتها بالقاهرة ، فى أوائل القرن الحالى ، فرقة الشيخ سلامة حجازى . وبها أناشيد وقصائد لحنها وغناها ذلك النابغة العظيم ، الذى قام فى المسرحية بدور العاشق روميو . منها قصيدة مطلعها :

سلام على حسن يد الموت لم تكن
لتمحوه أو تمحو هواه من القلب ..

وأخرى مطلعها :

عليك سلام الله ياشبه من أهوى
فياحبذا لو كنت تسمع لى شكوى

وكان صوت الشيخ سلامة حجازى ينتزع الدموع من المآقى فى أكثر من مقطع واحد من تلك الالحان ، نذكر منها هنا ، مثلا ، نداء الحبيب لحبيبته الراقدة بلا حراك : « أجولييت ماهذا السكون؟.. »

ومأساة روميو وجولييت من الموضوعات التى تلقفها فن السينما فقد أخرجت على الشاشة فى أفلام عديدة ، فى عهدى السينما الصامت والناطق ، وأخيرا بالالوان الطبيعية .

واصبح اسما روميو وجولييت ، على كر الايام ، رمزا للحب الجارف والوفاء له حتى الموت، كما أصبح اسما أسرتيهما المتخاصمتين رمزا للحقد والعداء .

وفى مدينة « فيرونا » بمقاطعة البندقية ــ فينيسيا ــ بايطاليا، بيت قديم يؤكد السكان انه البيت الذى عاشت فيه جولييت ، وأن

شرفته الصغيرة المطلة على الشارع الضيق ، هي التي كانت الفتـــاة العاشقة تناجي منها فتاها المتيم .

وفي قبر دير الرهبان الفرنسيسكان ، بالمـدينة التاريخية ، نعش مصنوع من المرمر ، يؤكد الناس أيضا أنه كان يضم رفات العاشقين .

والقبر والبيت من الآثار التي تجلب السائحين الى فيرونا . وقد أتيحت لي الفرصة لزيارتهما ، فأصغيت الى حارس القبر وهو يروى النوادر عن عشـــاق أتوا من بلدان بعيـدة ، ليلمسوا النعش المرمرى ويتبركوا به ، ظنا منهم أن في هذا ما يضمن لهم السـعادة والهناء في مستقبل الايام . ووقفت تحت الشرفة التي يخيل للناظر اليها ليـلا أن طيف روميو يحاول ، مرة أخرى ، أن يتسلقها للقاء طيف حبيبته. وفي احدى المكتبات ، وبين عشرات الكتب المخصصة للمأساة المؤثرة ، لفت نظرى كتاب لم أعرفه من قبـل ، وهو قصـة روميو وجولييت للمؤلف الفـرنسي « بول ريبو » وما ان انتهيت من مطالعتـه ، حتى بدأت بترجمته الى العربية ، لاعتقادى بأنه أصدق وأوفى ما سـطرته أقلام الباحثين ، وأسفرت عنه دراساتهم ، من الناحية التاريخية ، في موضوع طرقه الكتاب من جميع أبوابه ، وفي مختلف اللغات .

من هما العاشـقان اللذان يضرب بهمـا المثـل ، واللذان خلد شكسبير اسميهما في مسرحيته المشهورة ، وأوحت مأســـاتهما الى الفنانين بمقطوعات موسيقية ساحرة ، ولوحات ورسوم رائعة ؟ هل عاشا حقيقة ؟ وهل حـــدث لهما فعـلا ما رواه عنهما الـكتاب ؟ ذلك ما عني بدراسـته بول ريبو على ضـوء الوقائع التاريخيـة والوثائق الصحيحة . وقد خدم ريبو بذلك فن القصة وعلم التاريخ معـــا . وصور العصر الذى وقع فيه الحادث تصويرا واضحا دقيقا . وتوخى الفائدة التاريخية ولذة الفن القصصي ، وتجنب مايحسه القـــارىء من سـأم وملل ، حين تروى له وقائع التـاريخ في أسـلوب جاف . وللمؤلف روايات عديدة عمادها التاريخ ، تحتل في عالم الادب مـكانة ممتازة ، بينها مجموعة من القصص استوحاها بول ريبو من صـــميم الحياة العربية ، والعادات والتقاليد الاســـلامية ، في أثنـــاء اقامته بالجزائر في الحرب الاخيرة ، وقبيل وفاته بقليل .

وقد صدرت هذه الترجمة لقصة روميو وجولييت ، لبول ريبو ، في طبعة أولى وتصدر الآن في طبعة ثانية ، مراجعـــة ومنقحة ، عن « الدار القومية للطباعة والنشر » ورجائي أن يجد فيها القـــارىء ما أحرص دائما على أن أوفره له ، في كتبي الموضـوعة والمقتبســـة والمترجمة : الفائدة والتسلية في آن واحد .

القاهرة : يونيو ١٩٦٢ ـــ محرم ١٣٨٢

حبيب جاماتي

تصدير للمؤلف

هدفت فى هذا الكتاب الى تسلية القارىء واثارة اهتمامه الى أقصى ما استطعت ، على انى من الوجهة التاريخية تحريت الدقة الى أبعد حد .

ولعلى تخليت هنا وهناك عن بعض وقائع ثانوية . غير انى حرصت دائما على أن أراعى فيها الاحتمالات النفسانية ، وعلى أن استخدم صورا والوانا تطابق كل المطابقة أحوال العصر الذى أردت ان أصوره . ويهمنى أن أؤكد هذا للقراء الذين قد يميلون الى اتهامى باختلاق الاحداث دون مراعاة الحقائق .

ان كتاب التاريخ كثيرا ما يؤلفون كتبا مملة . ولكن هذا لا يعنى ان هذه الكتب المملة هى وحدها التى تتوخى الحقائق التاريخية .

وقد ذكر « لويدجى دابورتو » ــ أول ايطالى روى حكاية روميو وجوليت ــ انها جرت فى سنة ١٣٠٥ ، فهى اذن ترجع الى العصور الوسطى التى تبدأ منذ انقسام الامبراطورية الرومانية سنة ٤٩٥ حتى استيلاء الترك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وليست راجعة الى عصر النهضة الذى ازدهر فى أوروبا الغربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ومن هنا حاولت جهدى ــ وأنا ألبسها ثوب حدث تاريخى ــ أن أحيى فيها ما أثر عن الايطاليين الذين عاصروا الحروب الصليبية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر من صور وعادات ومشاعر وتقاليد .

وكذلك آثرت ان أطلق على أسرتى «روميو وجولييت» اسمى : «مونتيكى» و «كابلليتى» متابعا فى ذلك لويدجى دابورتو . بدلا من اسمى الأسرتين بالفرنسية : « مونتيجو » و « كابوليت »

وارجو من القارىء أن يتمثل اشخاص الرواية مثل كل أهل العصور الوسطى : اتقياء سذجا خشنين ، ذوى نفوس مرحة ، فى ثياب تماثل ثياب النبلاء والنبيلات المنقوشة على الأضرحة فى ايطاليا

الفصل الأول

عداء بين أسرتين

مدينة العاشقين

خرج أحد المهرجين الطوافين من بلدته فى فرنسا ، وأخذ يجوب البلاد فى طلب الرزق . ولما لم يجد ما كان يرجو فى وطنه ، اجتاز الحدود الى ايطاليا . وبعد أن طاف بعض القرى والمدن وصل الى مدينة فيرونا (١) المشيدة على أحد منعطفات نهر أويجى

كانت فيرونا محاطة بأسوار عالية . وكانت المنازل خلف الأسوار متجاورة متلاصقة والشوارع ضيقة غير نظيفة .

مر المهرج على أحد جسور النهر ودخل المدينة . فلما رآها على هذه الحال صاح :

ــ ما اتعس هذه المدينة ! وما اتعس حظى الذى قادنى اليها !

وكان ذلك المهرج المسكين قد ترك بلاده منذ الربيع حاملا على كتفيه تردا وعلى ظهره مندولينا كبيرة ، ويقود خلفه كلبين مربوطين بسلاسل حديدية . وحدث المهرج نفسه فقال :

ــ كنت أظن أن سنة ١٢٨٢ ستكون خيرا من سنة ١٢٨١ . ولكن النحس لا يزال يتعقبنى وها قد مضى على يومان لم آكل فيهما كسرة من الخبز .

وسار الرجل فى الطرقات الملأى بالأوحال حتى وصل الى ساحة الكاتدرائية . وكان القرد يصرخ والكلبان ينبحان مما أصابهما من التعب والجوع . وهناك وقف الرجل أمام دار مبنية بأحجار حمراء ، مسندا ظهره الى الجدار الذى يتوسطه بابها الكبير . وبعد قليل فتح أحد الخدم ذلك الباب فبدأ لعين المهرج فناء الدار الداخلى الفسيح ، تتوسطه بئر ، وتعلو واجهته شارة شرف منقوشة عليها . وقال للخادم :

ــ الا تشفقون على مسيحى وعلى حيواناته وتجودون ببعض فضلات الطعام ؟

فسأله الخادم باللغة الفرنسية : « من أى بلد أنت يا صديقى ؟ » فقال : « أنا من فرنسا ، وأرجو ان يتفضل النبيل صاحب هذا

---

(١) فيرونا من أكبر مدن ايطاليا القديمة وأشهرها ، وبها آثار رومانية عديدة بينها ميدان للالعاب وكنيسة . وكانت خلال بعض العصور الوسطى جمهورية مستقلة . ويوجد خارجها الآن قسم كبير من المبانى المشيدة على الطراز الحديث .

مدينة فيرونا ـ مسرح المأساة

القصر فيجود على بشيء من الطعـــام ويفســح لى مكانا آوى اليه انا وحيواناتى للراحة والنوم ! »

فهز الخادم راسه وقال :

ـ اذا كنت من فرنســا فالأمل ضعيف لأن السيد مونتيكى رب هذا القصر من حزب جيبلين أنصار أمبراطور المانيا (١)

فقال المهرج : « أليس لنا أن نعلق آمالنا فى كرم النبيلة ربة الدار السيدة مونتيكى ؟ »

فهز الخادم كتفيه وقال : « كلا ! ان النبيلة مونتيكى لا يمكن أن تحصل منها على شيء فهى أبعد النساء عن الاحسان والجود ، هـذا الى أنها لا يمكن أن تعطف على أمثالك من أنصار البابوية ! »

فأخذ المهرج يقلب يديه ويهز راسه مبديا بذلك ما خالجه من اليأس والحسرة ، وكأنما رق له قلب الخادم الطيب ، فقال له بعد أن نصح له بالانصراف :

ـ تستطيع أن تسلك هذا الزقاق القريب . فيؤدى بك الى قصر آل كابلليتى ، انهم من أنصار البابوية ، ومتى علمــوا انك فرنسى من حزبهم فســيكرمون وفادتك ويمــدون اليك يد البر والعطف . وهم والسيد مونتيكى صاحب هذا القصر أغنى نبلاء هذه المدينة وأقواهم !

وقبل أن ينصرف المهرج المسكين ، استوقفه الخادم واسر اليه قائلا :

ـ حذار أن تذكر هناك انك لجأت أو حاولت اللجوء الى قصرنا هذا ، والا فقد يطردونك شر طردة !.. أفهمت ؟

فأومأ المهرج براسه موافقا وشكر الخادم قائلا :

ـ لن أرتكب هذه الغلطة يا صديقى الطيب القلب !

وكان المهرج قد اطمأن حقا الى طيبة قلب ذلك الخادم ، وادرك من حديثه حقيقة ما كان القوم فى فرنسا يتحدثون به عن أحوال أهل فيرونا وما يسود علاقات أهلها من العداوة والبغضــاء . فاستأنفه الكلام وقال :

ـ أهكذا يتحارب دائما هؤلاء النبلاء آل مونتيكى وكابلليتى ؟!

---

(١) فى القرن الثانى عشر اتحدت المــدن الايطالية الكبيرة مــع البابوات وأصحاب السلطة الزمنية ، ثم حاربوا المانيا وتحرروا من سيطرتها ، ونشأت على أثر ذلك جمهوريات مستقلة فى ايطاليا ، كمــا ظهرت مملكة نابولى . وانقســم الايطاليون فريقين : أحدهما يناصر النظام الجــديد ، ويطلق عليه أسم (جيلف) والآخر يميل الى المانيــا ويطلق عليه اسم (جيبلين)

ولم يجب الخادم عن هذا السؤال ، اذ تذكر فى هذه اللحظة شيئا فقال للمهرج :

ــ انتظر يا صديقى . ان القوم هنا يستعدون للاحتفال بحادث سعيد .. ان النبيلة مونتيكى قد أنجبت ولدا ، ودنان النبيذ ملأى حتى أفواهها ، ولعلى استطيع أن أعطيك شيئا منه . فهات قربتك لأملأها لك !

واخذت المهرج نشوة الفرح ، فجعل يقذف فى الهواء بغطاء رأسه ويهتف قائلا :

ــ عاش آل مونتيكى .. عاش النبلاء الكرام !

وأدار الكلبان آذانهما نحوه وكأنما شعرا بأن فرحة صاحبهما تعنى توقع حصولهما معه على شىء من الطعام . وأخذ القرد يقفز هو الآخر مشاركا صاحبه فى المرح والابتهاج . بينما علا فى الوقت نفسه نباح كلاب القصر فى حظيرتها الخاصة بداخله ، وأطلت بعض الوجوه متسائلة من خلال المتاريس .

وسارع الخادم الطيب القلب فجذب المهرج الى رواق قريب وهو يقول له :

ــ اسكت ايها الأبله !

ومشى المهرج معه ساكتا حتى بلغا ذلك الرواق ، فلما اطمأن الى ان أحدا غيره لا يسمعه ، نظر اليه فى دهشة وقال :

ــ ما هذا ؟!.. هل السيد مونتيكى بعيد عن المروءة والاحسان الى هذا الحد ؟

فقال الخادم بصوت أقرب الى الهمس :

ــ أن النبيل مونتيكى رجل طيب ، ولكن امرأته تحب الخصام والنزاع ، وهى شديدة البخل حتى أنها لتحصى حبات عناقيد العنب . ومع أنها الآن على فراش الوضع والمولدات حولها ، فليس بعيدا أن ترسل من يراقبنا ، وحينئذ لا أستطيع أن اضع فى قربتك نقطة من النبيذ .. وقد ينالنى عقاب شديد !

وبعد قليل ، اتجه الرجلان نحو مطابخ القصر فى بطء وحذر ..

ثم ساد السكون التام فناء القصر ..

كانت النبيلة مونتيكى راقدة فى الغرفة الخاصة بها فى الطابق الأول من برج القصر . وهى سيدة فى العقد الرابع من عمرها ، ذات شعر له لون التراب ، وحاجبين عاليين ، وأنف أقنى كبير يطل على فم واسع دقيق الشفتين .

وكانت هيئة وجهها تنم عن كثير من الغلظة والجفاء والشراسة . فلا عجب أن أجمعت القائمات بخدمتها على رهبة جانبها توقيا لأذاها ،

وعلى التندر فيما بينهن بتقتيرها الشديد وحماقتها وحدة طبعها وسلاطة لسانها ، حتى لقد شاع بينهن أن من تقضى سنة كاملة فى خدمتها تضمن لنفسها الجنة فى الآخرة !

وكانت الحركة شديدة غير عادية فى الغرفة ، والنسـاء القائمات على خدمة ربة الدار ، يتسابقن الى أداء أعمالهن فى نشـاط وخفـة ملحوظين ، وقد فرشت أرض الغـرفة بالزهـور والرياحين حسب تقاليد القرن الثالث عشر لتفوح منها روائح زكية منعشة ، ولكى تطأ الأرجل شيئا طريا فلا يكون وقعها شديدا على الأسماع !

وهناك الى جوار السرير ، كانت تقوم أرجوحة ثمينة ، وضع فيها وليد النبيلة الذى رأى النور يوم عيد القديس يوحنا ، وعليـه لفائف عديدة شدت الى جسمه مذ ساعة ولادته . اذ كانت المولدات فى تلك الأيام يحرصن كل الحرص على احاطة الطفل منذ ولادته بمثـل هذه اللفائف مخافة أن ينشأ بأربع أرجل !

وأقبلت خادمة نحو السرير وقدمت للسيدة مونتيكى قدحا فيه سائل لادرار لبن الأمهات ، وكان الطبيب قد أوصى بذلك ، فحركته السيدة فى الكوب ثم شربته كله فى جرعة واحدة . بينما بدت ملامـح وجهها مثيرة للضحك !

وعلى أثر ذلك ، اسـتوت جالسة على سريرها بمعـاونة بعض الخادمات ، ثم أخذ صوتها الجاف الأجش يلعلع فى أرجاء الغرفة ، وهى تصدر الأوامر والتعليمات للخادمات . فتطلب من احـداهن أن تزيد فى سرعة مشيها . وتأمر أخرى بأن ترتب الغرفة وفق نظام معين . وتكلف ثالثة أن تضع فوق أحدى المناضد بعض الهدايا التى قدمت لهـا من الأصدقاء والصديقات ، أو بعض المشروبات المنعشة ، استعدادا لتقديمها بعد قليل للزائرات القادمات لتهنئتها بالمولود !

وهكذا رتبت السيدة مونتيكى كل شىء فى غرفتها وفى الدار لأجل استقبال المهنئين والمهنئات فى مدى خمسة عشر يوما على الأقل !

وكان الخدم والحشم يتسابقون الى تنفيذ الأوامر والتعليمات ، ويبالغون فى أعمال التنظيف والتنظيم والترتيب ، ليـكون كل شىء على أحسن حال عند حضور الزوار !

أما المرضعان فـلم تكونا تهتمـان بزينتهما لتبهرا الزائرات . وانحصر كل همهما فى العناية بالطفل السعيد الذى ملأ ميـلاده القصر غبطة وبهجة وشرح صدور الأصدقاء والأنصار .

كان قصر آل مونتيكى فى فيرونا يطل على النهر . وموقعـه على الحدود الفاصلة بين المدينـة والمزارع . فهو قصر ومزرعة فى الوقت نفسه . وكانت له واجهة بسـيطة فيها باب ضيق للدخـول . وفى الداخل حول فناء فسيح تقوم المساكن والغرف . وبين القصر والنهر مرج وحظيرة كلاب ، وفرن واسطبلات . وعند آخر المرج على شاطىء النهر ميناء صغير ترسو فيه ثلاثة قوارب لخدمة اصحاب القصر وأنصارهم

وأصدقائهم . وفى مدخل القصر كانت تقوم غرفة الاسلحة ، تغطى جدرانها الأعلام وبعض تحف وصور تذكر بالصيد والقنص وبعض الحيوانات والطيور الغريبة . وبينها صور فرسان يحاربون تنانين ، وملائكة يخفون الى مساعدة المضطهدين فى سبيل الدين !. وكان الصعود الى الطابق الاول من القصر يتم بوساطة سلالم تضيئها مشاعل تبقى موقدة ليل نهار . وفى هذا الطابق كانت مخادع سادات القصر حيث ينامون .

وكان السيد مونتيكى بدينا . عيناه بارزتان . وشفتاه غليظتان. ووجهه ضاحك ينم عن سرور وغبطة فى حياته

على أنه رغم هذه الظواهر الجذابة كان الحقد يملأ جوارحه احيانا . وكان من أنصار الأمبراطور البير ، يكره عامة الشعب ، كما يكره البابا معتقدا انه لا يصلح للحكم الزمنى !

وكثيرا ما كان هذا الرجل الطيب القلب القوى العضلات ينتقد الذين يحبذون الأفكار الجديدة ، وكانت بعض الظروف الخاصة قد جعلته يكره حزب البابوية الذى يقف أنصاره الى جانب البابا ويدافعون عن حقوق الفقراء والعامة .

ومنذ مائة عام قبل ذلك التاريخ أحب فتى من آل مونتيكى فتاة من آل كابلليتى . وبرغم الخلاف السياسى الذى كان سائدا يومئذ بين الأسرتين الكبيرتين ، تم الاتفاق على اقتران الفتى بالفتاة ، وحدد يوم الاحتفال بعقد هذا القران .

وفى ذلك اليوم ، وبينما الفتى يصعد درجات سلم الكنيسة ، يحيط به لفيف من آل مونتيكى هجم عليه بعض أنصار البابوية الحانقين على اسرته لاغفالها دعوتهم الى الحفلة . وجرت بين الفريقين معركة حامية ، انتهت بقتل الفتى على درجات الكنيسة . وكان قاتله من آل كابلليتى !

ومنذ ذلك اليوم اشتد الخصام بين الأسرتين وأخذ يزداد يوما بعد يوم !

وكان « البرتو ديللا سكالا » حاكم مدينة فيرونا مناصرا لآل مونتيكى لأنه مثلهم من حزب الامبراطوريين ، بينما آل كابلليتى — وهم باباويون — يؤلفون حزب المعارضة . وهكذا انقسمت المدينة الى حزبين يحارب أحدهما الآخر ، وكان طبيعيا أن يشتد فرح كل من الأسرتين كلما ولد لها طفل يزيد فى عددها ، وكانت ظروف السيد مونتيكى نفسه مما يجعل فرحته أشد بوليده ، اذ كان أول ولد ذكر يرزق به بعد عدة سنوات من زواجه !

الطفـــل روميـو

دخل احد الخدم على السيدة مونتيكى وقال :

ـ اتسمح سيدتى بأن يدخل المنجم الذى طلبته ؟

فانفرجت أسارير وجه السيدة ، واعتدلت فى جلستها قليلا ، وصاحت بالخادم قائلة :

ـ أين هو المنجم ؟.. هيا أحضره فوراً ، وادع سيدك أيضا لأنى اريد أن يكون حاضراً . اذهب سريعاً ، واياك ان تتلكأ كعـادتك فأنت مثال البطء والتراخى والاهمال !

وحنى الخادم رأسه مطيعا ، ثم انصرف مسرعا وما لبث غير قليـل ثم عاد ومعه المنجم المطلوب .

ونظرت السيدة الى المنجم فاذا هو ذو رقبة دقيقة ، ورأس يشبه البيضة . ولحيته الكثة تتدلى على صدره ، وقد ازدانت سبابة يده اليمنى بخاتم كبير براق ، عليه علامات سحرية رمزية !

فقطبت السيدة وجهها وقالت له بلهجتها الجافة الخشنة :

ـ لقد دعوتك يا سيد جوالتييروس كما هى العادة لتكشف لنـا طالع الولد الذى انعمت به علينا السماء . فأرجو أن تقول لنا خيرا !

فانحنى أمامها جوالتييروس مبديا الاجلال والامتثال ، ثم أخذ يقرأ فى كتاب كان يحمله بين يديه ويشير الى بعض علامات بأصبعه . وبعد القراءة والتمعن قال :

ـ بعد استشارة الكواكب الخاصة بهذا اليوم الخامس عشر من شهر يونيو ، أرى أن الأحوال طيبة ، ويمكن أن أقول ..

وسكت المنجم فجأة ، اذ فتح الباب فى هذه اللحظة ودخـل السيد مونتيكى هاشا باشا ، وصاح قائلا :

ـ أهذا السيد جوالتييروس اتى ينبئنا بالطالع السعيد المفرح ؟ انى أحييك أيها السيد العالم وأتمنى لك من السعادة قدر ما ستنـبئنا به عن هذا الوليد !

ثم خطا مقتربا من الأرجوحة التى بها الطفل ، فلما بلغها وقف يتأمل وجه الطفل وهو لا يكاد يظهر ، لكثرة ما كان عليـه من الأربطة واللفائف . ثم مد السيد مونتيكى يده ولمس اصابع الطفل، ففتح هذا جفنيه وفمه قليلا . وسرعان ما غمر البشر وجه أبيه وصاح قائلا :

ـ ها هو ذا يضحك !



الطفل روميــو

ثم ضرب بيده على فخذه واستطرد قائلا :

ـ سيكون شابا عظيما من انصار الامبراطور . هلم احضروا كأسا من النبيذ لأبلل به وجهه و ....

فقطعت زوجته كلامه فى خشونة وقالت :

ـ كلا !.. لا تفعل هذا ، لانه يكون زراية بسر العماد المقدس وهو مالا أقبله !

فبادر السيد مونتيكى بالعدول عن اقتراحه قائلا :

ـ حسنا !.. لن يكون الا ما تريدين !

وكان تصرف الزوجة دليلا جديدا على رغبتها فى اذلال زوجها . وهو ما تعوده منها منذ اتصلا بالزواج . ولم يكن ميالا الى المخاصمة فأذعن لرأى زوجته حسب عادته ، ثم نظر الى المنجم فرآه متجهما فقال له :

ـ ماذا ؟. أراك عابسا تبدو فى وجهك علامات القلق والاضطراب!. هل رايت فى طالع الطفل ما يكدر ؟!

فتردد المنجم أولا ، ثم قال :

ـ أبدأ بشكر الله الذى سيحمى الطفل فى بداية عمره . ثم أرى الأحرى بى أن ألزم الصمت فلا أقول شيئا بعد ذلك !

فقال له السيد مونتيكى !

ـ بل يجب أن تتكلم !

فبدا التردد فى وجه المنجم ، ثم قال :

ـ أما مستقبل الطفل فلست أذكر ما تدل عليه الطوالع فى شأنه لأنى ...

فقطع السيد مونتيكى كلام المنجم قائلا :

ـ قلت لك : يجب أن تتكلم ...

فقال المنجم : « تدل مقارنة الكواكب على أن الطفل روميو متى بلغ الخامسة والعشرين من عمره فيجب عليه أن يتحاشى رجلا آتيا من الشرق ! »

فسكت السيد مونتيكى قليلا ، ثم هز رأسه وقال :

ـ هل ذلك الرجل عدو قادم للحرب ؟

فقال المنجم : « لست أرى هذا الرجل يحمل سلاحا ، ولن يحاول السيد روميو أن يقتله . بل هو على عكس ذلك سيدفع له مالا ثمنا للسر الذى سيصيبه منه ! »

حرصوا على الا يبلل جسمه . بل كانوا اذا تجمعت مفرزات الجسم وكونت على جلده قشرة قذرة ، اكتفوا بفرك الجلد حتى تسقط تلك القشرة . وذلك طبقا لعادات القوم فى ذلك العهد . وكانوا فوق ذلك يفركون جسمه كل يوم أحد بقطعة قماش مبللة بماء ممزوج بعصير بعض رياحين وزهور عطرية .

وبهذه الطريقة عاش الطفل حتى بلغ السابعة من عمره دون أن يمسه مرض !

وحينئذ أخذ الوالد يهتم بتربية ولده حسب العادات الدارجة فى أيامه ، فكان يوصيه بأن يكون مؤدبا مهذبا لطيف الكلام والاشارة ، بشوش الوجه مطيعا ، وعلمه كيف يتحدث فى رقة وأدب . وكيف يقابل الناس ويحترمهم . وعلى هذا نشأ الغلام حكيما تقيا سهل القياد ، وبدت عليه منذ الصغر دلائل تؤكد انه سيكون نبيلا صالحا محترما بين الناس !

وكذلك علمه أبوه الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية . كما علمه السباحة وركوب الخيل . وعوده الجميع ألا يخاف من الظلام والظلال ، وأن يتحمل الامطار دون تذمر وأن يكون مقداما جسورا .

وهكذا تعود الطفل أن يثق بنفسه ، وأن يحلم بالمغامرات ، ويتجلى من صفاته خاصة : العزم الثابت ، والاباء

وقد حدث يوما أنه ضرب فلم يبك فقالت المرضع :

ـ ان السيد روميو عالى النفس ، لا يرضى أن يبكى !

وهنا قال روميو : « حينما أكبر ، لن يجرؤ أحد على أن يضربنى ! . على انى لم أبك اليوم حتى لا يعلم أحد بأنك ضربتنى ! »

فأثنت عليه المرضع وزادت فى تشجيعه !

***

كان والدا روميو لا يعرفان القراءة لأنهما من طبقة النبلاء . فكان على الولد أن ينشأ مثلهما . الا أنهما أرادا أن يعلماه بعض شئون الحياة العامة ، وكان أبوه قد تعود أن يكلف أحد الرهبان أن يقرأ عليه تاريخ القديسين ومغامرات أبطال العصور الغابرة . وتمنى أن يهتم ابنه مثله بأهم أحداث الدنيا وعجائبها ، فاتفق مع الأب لورنزو العارف بجميع ضروب العلم على أن يأتى الى القصر مرتين كل اسبوع ليتولى تعليم روميو ، وخصص فى القصر غرفة بعيدة عن الضجة لتكون مقر تلك الدروس .

وعلم الأب لورنزو الغلام عجائب الطبيعة ، فشرح له ما فى الهند والحبشة من أشياء غريبة مدهشة ، ومما علمه اياه أن الشمس تدور حول الارض فى يوم وليلة . ولم يكتف الأب لورنزو بأن يحشو ذاكرة روميو بأعاجيب الطبيعة ومدهشات الوقائع والحوادث فقط ،

بل عنى كذلك بأن يصقل عقله ، فأوصاه بألا يلوم أو ينتقد الناس لئلا يلوموه وينتقدوه هم أيضا . وقال له يوما :

– اذا أردت أن تعيش عيشة هنيئة ، فاذكر دائما أنه يجب ألا تستسلم للهموم ، واعلم أن من الخطل وضعف العقل أن تدلى بنصائح الى من لا يتوقعونها منك ، وان الشيطان يسره أن يسمع الناس يتحدثون مع أولئك المخبولين الذين يدعون انهم يفكرون فى شئون هذا العالم ويدرسون أحواله ويستخرجون عبره . وهذا ما تعلمناه من الكتب المقدسة . ويجب احترام الله واكرامه دون الحلف باسمه أو الكذب عليه . كما يجب مساعدة الفقير والابتعاد عن النفاق .

ولم يكن الغلام روميو يقضى كل وقته فى العمل ، بل كانت والدته برغم فظاظتها وقسوتها تأذن له فى التريض والتسلى واللعب كلما ارضاها سلوكه أو كلما شهد الأب لورنزو بأنه راض عنه . فكان روميو يلاعب رفاقه من الصبيان ، ويستقبل المهرجين الذين يفدون الى القصر فيتسلى بألعابهم وألعاب قرودهم وكلابهم وفكاهاتهم . كما كان يصغى لاقوال الشعراء المغنين الجوالين الذين يقصون مغامرات أبطال العصور الماضية . وشد ما كان الحماس يهزه حين يفكر فى أنه هو أيضا سوف يستطيع متى تقدمت سنه أن يهز السيف ويصادم الدروع ويبقر بطون الخيل ، ويشق صدور الاعداء !

نعم لم تكن السيدة مونتيكى تسمح بدخول القصر لاولئك الشعراء الجوالين ، لأنها كانت تراهم أوباشا متشردين طوال الألسنة ، يعرفون كل شيء ، ويقولون كل شيء ، ويتجولون في أنحاء العالم ويكشفون النقاب عن أسرار الناس . ولكنها مع ذلك كانت تقبل فيهم شفاعة ولدها روميو ، وكان أبوه يأمر بأن يوزع عليهم كثير من النبيذ لانه كان رجلا رقيق القلب والشعور !

ولما بلغ روميو عامه الحادى عشر ، دفع به والده الى فارس مسن خبير يعلم الفروسية واستعمال السلاح ، ليجعل منه فارسا قوى الشكيمة ، مرهوب النزال .

وعز على روميو بادىء الأمر أن يفارق المرضعين اللتين كانتا ترعيانه منذ ميلاده ، وذرفتا هما أيضا كثيرا من الدموع لهذا الفراق المؤلم !

وحينما تشبث بهما وضرب الارض برجليه مؤكدا أنه سينتقم لنفسه، صفعته والدته بشدة ، وهددته بأن تعامله معاملة أقسى وأشد اذا لم يخضع لأوامر والديه لأن سلطتهما مستمدة من الله !

وخضع الغلام لارادة والديه ، ومضى مع الفارس بونافنتى الى غرفة السلاح . والحق أن روميو طالما تمنى منذ سنين عديدة أن يؤذن له فى دخول هذه الغرفة حيث كانوا يحفظون اسلحة أجداده منذ مئات السنين

واخذ الفارس العجوز يعلمه أسماء الاسلحة . ثم شرح له طرق استعمالها . وكان الغلام فرحا مسرورا الى حد بعيد !

روميو يصطاد

فرغ الاستاذ بونافنتى من تلقين روميو تلميذه مبادىء الصيد وقواعده ، ورغب هذا فى تطبيق العلم على العمل ، فاستجاب أستاذه لرغبته ، واصطحبه فى رحلة لصيد الزرازير ٠

واصطاد الاستاذ وتلميذه كثيرا من الزرازير ، وكان بعضها ما زال حيا سليما ، فربطا أرجلها بخيوط طويلة مدهونة بمادة الدبق اللزجة ، ثم أرخيا لها العنان فطارت واختلطت بأسراب الزرازير الطليقة ، وسرعان ما لصقت أرجل كثير من هذه بتلك الخيوط ، فاصطادها هى الأخرى بهذه الوسيلة فى يسر وسهولة ٠

ولما صار فى استطاعة روميو أن يمتطى جواده ويركضه وراء الفريسة التى يريد صيدها ، أهدى اليه أبوه فهدا صغيرا أرقط ، يبدو جسمه ذو البقع السوداء وكأن ليس به عظام لشدة ليونته ، ثم ألبس هذا الفهد دثارا أزرق مطرزا ، وأحيط عنقه بقلادة من اللآلىء يتوسطها جرس من الذهب ، فكان روميو اذا خرج للصيد ، أردف هذا الفهد خلفه على جواده ، ثم يطلقه على ما يلوح له من الارانب وغيرها ، فسرعان ما ينقض عليها انقضاض الصاعقة ، ثم يحملها بين أسنانه ، ويعود بها الى روميو!

وبعد تجارب عدة وتمرينات طويلة حكم الاستاذ بونافنتى بأن تلميذه صار أهلا لأن يعنى بتربية الصقور لأجل الصيد ٠

وكان السيد مونتيكى يقتنى صقورا نادره من هذا النوع ، جلبت من ألمانيا حيث أخذت صغيرة من أعشاشها فى الصخور على شاطىء البحار الباردة ، وأخذوا فى تدريبها على ما يلقى اليها من الاوامر بوساطة الصفير والاشارات والاصوات ٠ فاختار الاستاذ من بين هذه الصقور ألطفها هيئة ، وأخفها حركة وطيرانا ، واختارها من الاناث ، اذ هى أقرب الى الطاعة والانقياد من ذكور الصقور المتعجرفة ٠ وكان فى ذيلها ثلاث عشرة ريشة مما يؤكد جودة نوعها ٠ ثم قال لروميو : « لا يكفى أن يستفيد الانسان من الاشياء التى تحيط به فى هذا العالم بل يجب أن يعرف أصولها » ٠ ثم مضى يعلمه كيف يوقف أنثى الصقر المختارة هذه فوق راحته ، وكيف يدربها على مطاردة الفرائس التى يحاول اصطيادها، كما لقنه كثيرا من الحيل النافعة فى صيد الطير

وكان من بين تلك الحيل اصطناع عصفور من قماش أحمر ، وتزويده بجناحى حجل أو بطة ، ثم توضع عليه قطعة لحم صغيرة مما يأكل الصقر ، على ألا يسمح له بأن يلتهمها الا بعد أن يعود الى سيده حاملا الطريدة المطلوبة !

وفى ذات يوم ، التفت الاستاذ الى تلميذه وقال له :

ـ سنصطاد اليوم من دون استعمال هذه الخدعة . بل نطلق حجلا مجروحا يستطيع الصقر أن ينقض عليه فى سهولة . ثم تهجم أنت فى الحال لتمنع الصقر من تمزيق الحجل !

ثم أعاد هذه التجربة على أرنب كسرا احدى قدميه الاماميتين لكيلا يستطيع أن يمضى بعيدا !

ثم وضعا جلد أرنب على ديك حى أطلقاه فى حقل ، فأخذ الصقر الذى كان روميو ممسكا به يصفق بجناحيه ويرتفع لكى يطير . وبعد أن خلعا عنه دثاره أطلقه روميو فانقض على جلد الأرنب وانتزعه وأتى به الى سيده الذى أعطاه رأس الديك وكبده جزاء له !

وكان الاستاذ عندما يتكلم عن الصيد بواسطة الصقور يتحدث بلهجة الجد والعظمة .

وكان يقول لتلميذه : « ان الصقر مثل السيف علامة مميزة لا بد منها للنبلاء ، وان شرائع الفروسية تحظر التخلى عن الصقر فاذا هجم عليك لصوص يوما وأنت تصطاد فيجب أن تطلق سراح الصقر فى الحال لأن الصقر نبيل لا يجوز أن يقع فى الأسر !»

ثم ختم الاستاذ درسه بأن لقن تلميذه الضراعة التى يجب على كل صياد طيب أن يوجهها الى النسور لكى تحترم هذه الصقور فى تأدية واجباتها . وهذه الضراعة هى : « أيتها النسور .. أستحلفك بالاله الحق المقدس ، وبالعذراء الطاهرة مريم ، وبطبقات الملائكة التسع ، وبالأنبياء والقديسين ، وبالاثنى عشر رسولا ، أن تتركى المجال حرا لصقورنا ، وألا تتعرضى لها بأى ضرر ! »

الجماهير التى كانت لا تزال تتدفق وتتزاحم برغم امتلاء المقاعد كلهـــا بالنظارة

وأخيرا ، بدا فارس يلبس ثوبا واسعا ثمينا عليه رسم شـــعار فيرونا ، وأخذ ينفخ فى بوق طويل فضى ، ثم رفع عقيرته وصاح بالحاضرين أن يلزموا الصمت ٠

وسكت النظارة ثم بدأت المنافسة بين المتبارين ٠

ورأى النظارة فارسين حاملين رمحين يتنازلان وهما يسيران خببا ٠ وكانت أغطية الجوادين ثمينة فاخرة مختلفة الألوان متنوعة الاشكال ٠

وحدث حين اقترب أحد الجوادين من الآخر ، أن مضيا فى اندفاعهما فكانت بينهما صدمة قوية ، وأصاب رمـــح أحد الفارسين درع الآخر ، وأصاب رمح هذا غطاء ذراع ذاك ٠ وعلت ضجة وجلبة طويلتان من جميع صفوف النظارة ، وكان روميو منشرح الصدر بادى الغبطة ٠

ثم رجـع الفارسان الى أطراف الساحة ، وأركضا جواديهما الى أن التقيا وجها لوجه ، ثم أخذا يتبارزان ٠ وكان أحدهما محافظا كل المحافظة على قواعد المبارزة ، كما بدا أنه شـديد اليقظة والحذر ، أما الآخر فكان أكبر همه منصرفا الى لفت أنظار السيدات اليه ، واستثارة اعجابهن به ، وهكذا لم يمض قليل حتى ضربه خصمه برمحه على وجهه فهوى على الارض والدم يقطر من فمه وأذنيه وسقطت أسنانه من فمه !

وعلا هتاف النظارة يحيون هذا الانتصار ، وعزفت الموسيقى ، ونفخ فى الابواق ٠ بينما أخذ الفارس الظافر يرد تحية النظارة بحركات خاصة يأتيها برمحه !

وتلت هذه المباراة مباريات أخرى عديدة ٠ وصار المتبارون يشكون خيولهم بالمهاميز ويتشاتمون ، ويصف بعضهم بعضـــا بالخور والنذالة ويحثون جيادهم لكى تهجم فى وحشية ٠

وبلغ عدد النبلاء الذين اشتركوا فى هذه المصادمات عشرين فارسا جرح منهم ثمـــانية وسقطوا عن خيولهم ٠ وهلك جوادان أخرجوهما من الميدان ٠

ولم يمت فى هذا الصدام الا اثنان ، سقط أولهما ـ وهو أحد النبلاء ـ متأثرا بطعنة رمح شطرت خوذته شطرين ونفذت الى رأسه فسالت الدماء على وجهه ، ودار حول سرجه ثم سقط الى الوراء !٠ أما القتيل الآخر فكان أحد المنادين ، هجم عليه جواد فى أثناء الزحام ورفسه بقوة فى موضـع حساس من جسمه ، فتلوى المسكين وسقط على الارض يصيح من شدة الألم ، ثم لفظ أنفاسه الاخيرة قبل أن يخرجوه من الميدان !

على أن هذين الحادثين لم يؤثرا فى رونق الحفـلة ، لأن القوم فى ذلك العهد كانوا يعيشون والموت الى جانبهم فكانوا يعدونه دائمـا قريب الاحتمال ! بسبب السهم أو الطاعون أو ضربات الخصوم ٠ وكان الناس

يحسبون أن الذين يموتون فى مثل هذه الظروف يسبقون غيرهم الى الجنة !

وفى ختام الصدام تقدم الفارس الذى أعلن حكم المباراة أنه هو المنتصر نحو مقصورة حاكم المدينة « ألبرتو ديللا سكالا » فى احتفال عظيم . وعندئذ تعالت الهتافات المتواصلة الحماسية وجلبة الفرح السرور والتصفيق الشديد المتواصل .

على أن الغلام روميو ، مع شديد اعجابه بما شهد من ضروب الالعاب الباهرة ، كان كل تفكيره متجها نحو الطفلة الجميلة ، فعاد الى سؤال أبيه من جديد : « من تكون هذه الطفلة ؟ »

وهنا شده أبوه من كتفيه ثم ركله بقدمه ركلة عنيفة وقال له :

ـ ألم آمرك بالسكوت ؟ .. اياك أن تعود لمثل هذا السؤال ، ولتمح صورة هذه الطفلة من مخيلتك فهى من آل كابلليتى ، ويجب ألا تهتم بها ولو كانت أجمل من أجمل القديسات فى الجنة !

***

مضت على ذلك الحادث ثلاثة أعوام ، وكان روميو مونتيكى قد دخل فى السنة الرابعة عشرة من عمره ، وقد برع الى حد كبير فى قنص الطيور وهى تسبح فى الفضاء ، وصار أهلا لأن يحمل الصقر على كفه !

وبدأ الشاب منذ عيد الفصح فى سنة ١٢٩٦ يحمل على كفه وهو جذلان طائرا على رأسه غطاء من الجلد مطرز بالذهب وتزينه لآلىء ، وقد علق بساقيه جرسان صغيران من الذهب عليهما شعار سلاح سيده ، وذلك لكى يمكن الاهتداء اليه اذا ضل بين الاحراش والاعشاب .

وكان روميو فى ذلك الوقت قد تعلم كيف يعدو طويلا على ظهر جواده ، وكيف يتشبث بمقعده فوقه وكأنما التصق به ، فكان الناظر اليه وهو يعدو بجواده يكاد يحسبه هو والجواد والسلاح قطعة واحدة . وكان الفلاحون اذا رأوه مارا سددوا اليه أنظارهم يمتعونها بشبابه الغض ونبل طلعته وعرض كتفيه ورشاقة قده !

وكان حين يمر فى سهل أو غابة أو كرمة ، ويرى طائرا يحلق فى الفضاء هناك ، يبادر بالوقوف ، ثم يطلق صقره مشيرا له الى ذلك الطائر ، فسرعان ما ينطلق الصقر كالسهم ، ويمضى محلقا مطاردا ذلك الطائر الى أن يمعنا فى الطبقات العالية من الجو ، ولا يرى الناظر اليهما سوى نقطتين سوداوين ، تقتربان حينا ، وتبتعدان حينا . وقد تختفى احداهما أو كلتاهما فى زرقة السماء ، ثم لا تلبث احداهما أن تبدو أكثر وضوحا ويزداد حجمها كلما اقتربت من الارض . وأخيرا يتبين أنها الصقر الذى أطلقه روميو ، وقد عاد ممسكا بفريسته وهى ما زالت تنتفض من أثر الصدام الذى حدث بينهما فى الجو !

على أنه كان يوجد أصعب من هذا الضرب من الصيد وأخطر منه

چولييت فى النهــر

استطاعت التمرينات الرياضية أن تحول روميو من غلام رخو الى شاب قوى الاعصاب والعضلات ذى بأس شديد ونفس حازمة وثابة ، وأخذت تصرفاته تتسم بالتمرد والصلابة ٠

وكان من يراه فى الكنيسة راكعا يصـلى فى خشـوع واستكانة ، لا يتصور أن هذا الشاب الهادىء الطبع يمكن أن يكون ثائرا متمردا ٠

والواقع أن روميو كان قد بدأ يثور ضد استبداد أمه وطغيانهـا فى القصر ، وكانت هى تصفعه على وجهه فى شدة صفعات تهزه وتقذف به على الارض أحيانا !

بيد أن أباه لم يـكن يرضي عن تلك القسـوة من وزجته ، اذ كان يحب روميو ويعطف عليه ، وكان يلذ له وهو يتمشى على سطح القصر أن يتكىء على كتفى ولده متأملا علامات الحـزم التى كانت تظهـر على وجهه ٠ وهكذا تعود روميو أن يعتبر أباه صديقا له وموضع ثقته ٠

وكان لهم جار نبيل اسـمه « شبافنتى » له ولد يصـغر روميو بسـنة واحدة ويماثله فى الاخلاق والعادات ، واسمه « مركوتشيو » ، فتوثقت عرى الالفة والمحبة بين الشابين ٠ وراحا يتنافسان فى مختلف الالعاب الرياضية كرمى السـهام والنشاب والمقلاع ، ويخرجان الى المروج حـول فيرونا حيث يتسابقان على ظهور الثيران بعد أن يهيج كل منهما ثوره ويركضـه بأقصى قوته ، غير عابئين بما يصـيبهما من جراء سقوطهما على الأرض خلال ذلك ٠

وفى كثير من الأحيان ، كانا يرميان فى نهر أديجى شباكا لصـيد السمك ، ويتركها الى اليوم التـالى حيث يأخذان ما تجمع فيها من أنواعه المختلفة ٠ كما كانا يذهبان الى الجبـال المجاورة لصيد الذئاب والثعالب وأنواع الطير الجبلية ٠ وكان والداهما يرسـلان معهما بعض الخدم والأعوان ليكونوا فى خدمتهما وحراستهما خلال الرحلة ٠

وكان روميو يحب رفيقه مركوتشيو محبة شـديدة ، لـكنه فى الوقت نفسه كان بحكم ثراء والديه وتربيته الخاصة ، يملى ارادته عليه دائما ، ويحسده على ما يستطيع ممارسـته دونه من ضروب اللهـو والتسلية ٠

وكثيرا ما تخاصم الشابان لأسـباب تافهة ، لكن خصامهما لم يكن يستمر أكثر من يوم ، ثم يحـل محله الوفاق والوداد من جديد ٠ لأن كل واحد منهما يشـعر بميل غريزى خفى نحـو الآخر ، ولا يطيق أن يصبر طويلا على الابتعاد عنه ٠

***

كان الشتاء فى فيرونا ، غير مستحب غالبا بسبب الرياح الشمالية التى تهب عليها وتمر فـوق جبال الألب المغطاة بالثلوج . وكذلك كان صيفها كثيرا ماتشتد حرارة الجو فيه الى درجة تحمل أهلها ،والمترفين منهم خاصة ، الى الخروج رجالا ونساء الى النهر للاستحمام فيه .

وقد تعود روميو أن يطرح خارج قصر أبيه بقايا الخـراف التى يحضرها من مزارعه لذبحها وأكل لحومها ، فكانت هذه البقايا تتجمـع من قشور الفاكهة والخضر وبقايا الطيور والبيض المعفن والزبد الفاسـد وأمعاء السمك وما اليها ، ويتكون من هذا كله تلال متفرقة فى مواضـع عدة من الشارع ،وكان الخدم يلقون على هذه التلال مايريدون التخلص منه من المياه القذرة وروث الخيـل والكلاب وما اليها من القاذورات ، فتحتشد فوقها جيوش من الذباب والبعوض ، يقـل عددها حين تجف تلك التلال وتتجمد تأثرا بما يصل اليها من أشعة الشمس. أما المواضع التى لم تكن أشـعة الشمس تصل اليها ، فكانت تلك القاذورات تتخمر فيها ، وتنتشر منها — عدا الرائحة الكريهة والذباب والبعوض — أفواج من الديدان تزحف هنا وهناك !

وفى يوم من أيام الصـيف ، خرج روميو الى النهر للاسـتحمام يصحبه صديقه مركوتشيو . وفيما هما يسيران على الشاطىء هناك ، شاهدا بين المستحمات صبيةصغيرة ترتدى قميصا طويلا ابيض ،التصق بجسمها الفض ، ذى اللون الذهبى المائل الى السمرة ، فزاد فى فتنتها وملاحتها !

ولم تكن هذه الصبية الحسناء ، يزيد عمرها على عشر سنوات ، على أنها كانت تحاط بعناية كبيرة ملحوظة من السـيدات المستحمات الأخريات ، وكلهن يتنافسن فى احترامها واجلالها ، ممـا يدل على أنها سليلة أسرة عريقة ذات ثراء وجاه ومركز رفيع .

وأعجب روميو وصـاحبه بمنظرها وهى تستحم فى النهر ، وتلهو بضرب الماء بعصا قصيرة فى يدها فترتفع قطراته ، ثم تنحنى وتنكمش متظاهرة بالخـوف حين يعلو الماء فى موضـعها بالنهر ، ويغطيها حتى عنقها ، وهنا تقفز فى رشـاقة ومرح ، فتبدو قامتها الهيفـاء فى مظهر يخلب الألباب والعيون !

وكان أن انصرف روميو ومركوتشيو بـكل اهتمامهما الى مراقبة تلك الصبية ذات الجمال والدلال والجلال ، فاتخذا لنفسيهما مخبأ خلف بعض الاعشـاب المرتفعه ، ووقفا هنـاك يختلسان النظـر اليها أثناء لهوها ، ليستمتعا بما تبديه — من حيث لا تشعر بهما — من ضروب الفتنة والاغراء .

وفيما هما مأخوذان بسـحر جمالها ورشاقتها وخفتها ، سـمعا احدى تابعاتها تهتف بها قائلة :

— حذار يا جولييت . لا تبعدى من هنا لأن الارض كثيرة الأوحـال هناك ... واخشى أن تزلق رجلاك !

فعرفا ان اسـمها جولييت . وسرهما أنهـا كانت حريئة لم تعبأ

بتحذير هذه التابعة وغيرها ممن معها من الحارسات ، فكانت تفاقلهن وتمضى فى لهوها ومرحها فتغطس فى الماء حتى يبلغ ذقنها ، وتخوض فى الوحل حتى يغطى جسمها كله ، ثم تقفز هنا وهناك فى خفة الظباء ، وضحكاتها الصبيانية البريئة تلعلع فى الفضاء !

وهمس مركوتشيو بغتة فى أذن روميو قائلا :

— لقد عرفت الآن من تكون هذه الحسناء اللعوب

وأرهف روميو سمعه ، ونظر الى صاحبه متسائلا فى لهفة ، فواصل هذا كلامه وقال :

— ان احدى هؤلاء الحارسات اللائى يصحبنها ، خادمة عند آل كابلليتى ، فهى اذن من فتيات تلك الاسرة !

وسرعان ما اختفى البشر من وجه روميو ، وبدا مقطب الجبين ، بادى الحسرة والأسف ، فقد كان حسب تقاليد أسرته يحمل حقدا شديدا فى طيات نفسه لاسرة كابلليتى ، منافسة أسرته فى فيرونا ، من حيث الثراء والجاه وكثرة الاتباع والانصار ، فضلا عما بين الاسرتين من عداء مستحكم قديم !

ثم مط روميو شفته السفلى وقال :

— صبية من آل كابلليتى ؟ ! .. أتمنى أن يخرج من الماء حيوان مفترس يمزق جسدها وينظف الارض منها !

ثم استطرد فقال : « لنذهب من هنا .. ان ماء النهر ليبدو قذرا بعد أن دنسته أجسام أولئك الأوغاد ! »

***

بلغ روميو السادسة عشرة من عمره ، فسعى أبوه لدى السيد البرتو ديلا سكالا ، حاكم مدينة فيرونا ، حتى عينه وصيفا له

وكان السيد البرتو هذا من أسرة « شكالجيرى » . وقد تولى حكم المدينة منذ عشرين عاما . وكان رجلا طيب القلب ، محبا للسلام ، غير ذى مطامع . وقد استطاع أن يعقد الصلح مع أهالى بريشيا وبادوا ، وأعلن ذلك رسميا فى ميدان السوق خلال ثلاثة أيام بوساطة المنادين والنافخين فى الابواق . ومنذ ذلك العهد عاشت فيرونا فى رخاء وسلام . وصار العدل مخيما على الجميع

وجرت العادة فى ذلك الوقت بأن ينظم الكبراء فى سلك حاشيتهم شبانا أقوياء يصيرون بعدبضع سنوات من رجال الحاكم ،حيث يتدربون على السلطة ويروضون أنفسهم على الانقياد والطاعة لرؤسائهم وزعمائهم

وكان روميو شابا ظريفا ، يتدلى شعر رأسه ضفائر على خديه . ويضع على رأسه غطاء من المخمل الاحمر تعلوه ريشة ، وكان كيسه دائما تملؤه النقود . كما كان عريض المنكبين ممشوق القوام ، قوى العضلات

وكانت السيدات الشابات ينظرن اليه فى اعجاب وتقدير ، ويتحدثن بما امتاز به من القوة والجمال والبراعة فى الرياضة

وكثيرات منهن ، كن يتوددن اليه ، ويتقربن منه ، للاستمتاع باجتلاء طلعته والاستماع لحديثه ، ومنهن من كن لا يملكن أنفسهن حينذاك ، فيلمسن خديه الناعمين بأيديهن على سبيل الملاطفة والتحبب

وكذلك كان اكثر النبلاء يبدون له العطف والتشجيع والاعجاب

أما هو فلم يكن — لطهارة نفسه — يشغل نفسه بالبحث عن أسلوب هذا التحبب والاستلطاف ، كان يقوم بعمله خير قيام فى نشاط واستقامة ، فينفخ فى البوق ، ويرفع أطراف ثوب سيده من الخلف ، ويصحب منادى السلاح ، ويحمل أباريق المياه فى المآدب ، ويقدم الركاب للحاكم حينما يهم بالركوب الى غير ذلك من الخدمات

وكان همه الوحيد أن تقترب الساعة التى يستطيع أن يمارس فيها شئون الحياة الخطيرة ، فكان يتألم اذ يرى نفسه ليس أكثر من وصيف صغير !

لقاء غير متعمد

كان روميو يصطاد يوما على شاطىء نهر اديجى ، فرأى هناك مهرجا مسكينا قد ركع فى خشوع ورفع يديه متضرعا والدموع تنهمر من عينيه . والى جانبه كلب يتلوى من الألم فتقدم روميو وهو يحمل سلاحه حتى وقف أمام المهرج وقال له : « ما لك تبكى أيها الرجل ؟ »

فقال المهرج وهو ينتحب :

ـ ان كلبى سيموت . انى أشعر بذلك ولن يفيد دواء فى خلاصه ، وقد كان هذا الكلب وسيلة لكسب رزقى . ماذا يحل بى بعد موته ؟

وكان الى جانب الرجل كلب آخر . وعلى كتفه قرد ، فخيل الى روميو أن هذا الكلب الآخر والقرد يشاركان صاحبهما حزنه وقلقه كأنهما شاعران مثله بالمصيبة المقبلة عليهم جميعا

وقال روميو للرجل : « أأنت فى هذه الجهة منذ عهد بعيد ؟ »

فقال المهرج بعد أن زفر زفرة حرى :

ـ نعم يا سيدى ، انى أعيش فى هذه المنطقة منذ عدة سنوات . وقد طفت كل المدن الايطالية التى حول فيرونا . ونمت أحيانا فى قصور الأغنياء ، وأحيانا أخرى فى أكواخ الفقراء ، وذقت حلو الحياة ومرها . وكانت هذه الحيوانات ـ ولا سيما هذا الكلب الذى يفارق الحياة الآن ـ عدتى ووسيلتى فى كسب رزقى ورزق أسرتى !

وفى هذه اللحظة ظهرت فتاة صغيرة كانت تروح وتجىء على شاطىء النهر وتقطف زهورا ورياحين من بين الأعشاب النابتة هناك . فلما صارت الى جانب الكلب المحتضر وقفت وقالت :

ـ ما أتعس حظ هذا الكلب !. انه يتألم كثيرا !

فقال المهرج باكيا : « انى أفقد هنا كل ما أملك وكل أمل لى فى الحياة ! »

وتململ الكلب المحتضر فى موضعه واهتز جسمه ثم همد وانقطعت انفاسه . فأخذ صاحبه يندبه وينتحب !

فقالت له الفتاة : « لا تعذب نفسك هكذا يا رجل . لا فائدة من كل هذا . »

ثم التفتت الى مرضع كانت تصحبها وقالت لها :

ـ أعطى هذا المسكين بعض المال !

وكان روميو فى الوقت نفسه قد التفت الى حامل سلاحه وأمره

أن يعطى المهرج المسكين بعض المال أيضا ، فسارع التابع الى تنفيذ أمر سيده . وابتعد قليلا وأشار الى روميو اشارة خفية فأدرك هذا أنه يريد أن يسر اليه شيئا ، فلحق به مسرعا وسأله عما يريد ، فقال التابع :

ـ هلم نبتعد يا سيدى لئلا يراك أحد بجانب هذه الفتاة ؟

فبدت الدهشة فى وجه روميو وقال لحامل سلاحه بعد أن اختلس النظر الى الفتاة :

ـ انها تبدو ظريفة خفيفة الدم ، فماذا فى الوقوف بجانبها ؟

فواصل التابع كلامه وقال وهو يتلفت حواليه بادى الاضطراب :

ـ احذر يا سيدى ، لو أن والدتك علمت بأنك اقتربت لحظة من هذه المخلوقة لنقمت عليك طوال الحياة !

فقال روميو : « لماذا ؟ .. انك تبالغ ولا شك .. ان كلامك هذا غامض غريب ! »

فاقترب منه حامل سلاحه وهمس قائلا :

ـ انها من آل كابلليتى !

فتجهم وجه روميو وابتعد من ذلك المكان مسرعا ، بينما كان المهرج مشغولا بحفر حفرة صغيرة ليوارى فيها فقيده العزيز

وبعد سكوت طويل ، التفت روميو الى حامل سلاحه وقال له :

ـ هل من الحكمة أن يتباغض الناس هكذا ، حتى دون أن يعرف بعضهم بعضا ؟

فأجابه الرجل قائلا :

ـ لو شغل الناس أنفسهم بأن يميزوا الحق من غير الحق فى الواجبات المفروضة عليهم لعمت الفوضى العالم . ان رؤساءنا يأمرون ، وعلينا ان نطيع دون أن نسألهم بيانا . ولو أنهم سمحوا بأن نناقشهم لما أمكنهم أن يحتفظوا بالسلطان الا على أيدى أناس مجرمين يسكتون على جرائمهم !

ووقف روميو قليلا ، والتفت وألقى نظرة خاطفة أخيرة على تلك الفتاة وهى تسير مع مرضعها حاملة ما جمعته من الزهور والرياحين . ومضى فى طريقه على أثر ذلك صامتا متفكرا فيما انطوت عليه كلمات حامل سلاحه عن أوامر أصحاب السلطان ، ووجوب الامتثال لها دون مناقشة ولا جدال

فى قصر آل كابلليتى

كان قصر آل كابلليتى قائما وسط مدينة فيرونا ، بالقرب من ميادينها القديمة . وحوته منازل عتيقة لا يصل اليها الهواء والنور . وكان من أقدم قصور المدينة وأعظمها فقد شيد منذ ثلاثمائة سنة

وكانآل كابلليتى من أنصار البابوية . مثلهم فى ذلك مثل رجال الاكليروس الخاضعين لسلطة البابا ، وبعض المحافظين على التقاليد القديمة ، والجنود وعامةالشعب .أما بقيةأشراف فيرونا والارستقراطيون القدامى والقضاة والأغنياء والرؤساء العسكريون فكانوا يميلون الى امبراطور ألمانيا القوى حاكم البلاد الشمالية .

وكان آل كابلليتى من أعظم العائلات المنتصرة للبابا . ويعد قصرهم خط الدفاع الاول ، وهو قصر ضخم تقل فيه النوافذ الخارجية ، وقد شيد على طراز قصور العصور الوسطى بحيث يمكن أن يلجأ اليه الفقراء عندما يحدث غزو ويحتمون به . ولهذا اقيمت على جوانب سطحه الفسيح غرف خاصة تتخلل جدرانها الخارجية شقوق ليمكن رصد الأفق منها . كما أقيمت على السطح أيضا متاريس ، وأدوات لقذف الحجارة والرصاص المصهور والقار المغلى على من يحاول اقتحام القصر ، أو الصعود اليه بوساطة الحبال وغيرها للهجوم على من فيه .

وكان فى وسط القصر بناء فسيح ، به قناطر تقوم عليها المساكن والغرف ومعارض السلاح والتحف وأسلابالمعارك وما اليها منالاشياء الثمينة

ومن بين تلك الغرف كلها ، كانت هناك غرفة واحدة هى التى ربيت فيها جولييت الابنة الوحيدة للاسرة ، بها نافذة خارجية تطل على الجهة الشرقية ، وبها كذلك شرفة من الحجر المنحوت ، تطل على مساحة تضم عدة منازل منخفضة جدا ، فكان الناظر من تلك الشرفة يرى نهر الأديج والسفن والزوارق السابحة فيه ، كما يرى سهول لومبارديا بما فيها من زروع منوعة

أما والدا جولييت فكانا يقيمان بغرفة فى الطابق الاول من المبنى الرئيسى بالقصر ، تطل على فنائه . وبذلك كان رب القصر يستطيع أن يرى كل حركة فيه

وكان السيد كابلليتى رب القصر وسيم الطلعة . طويل القامة . كثيف الشعر أسوده . له فم صغير وعينان براقتان تبدو نظراتهما قاسية حينا وساخرة حينا آخر ، وهو قليل الكلام يتعمد الايجاز فيه ، فكان من ينظر اليه أو يسمعه لا يستطيع أن يتبين حقيقة شعوره وما تنطوى عليه نفسه . وكانت يداه طويلتين قويتين جدا . على انه فى شبابه كان أقوى كثيرا ، وما زالت قوته تلك مما يتحدث به كل من عرفوه حينذاك ، ولاسيما من النساء ، فقد كن يروين عن قوته الخارقة

روايات أشبه بالأساطير التى تروى عن الأبطال !

وأما السيدة كابلليتى فكانت على عكس زوجها طيبة القلب ، مستديرة الجسم . وردية اللون ، بادية الصحة ، يكاد خداها المكتنزان يحجبان عينيها . وكانت سعيدة فى حياتها ، توجه كل اهتمامها الى اختيار أطايب الطعام والشراب ، والاستماع لأناشيد الشعراء المغنين ، وشم الروائح العطرية ، وانتقاء أغلى الملابس وأفخمها

على أن طيبتها لم تكن نتيجة ايمان بالفضيلة بل لأنها لم تكن تستطيع أن تؤذى ، ولأنها بطبيعتها كانت لا تحب أن ترى حولها وجوها عابسة غاضبة أو حزينة متألمة !

وطالما تمنى هذان الزوجان أن يرزقا ولدا ذكرا . ولكن الأقدار لم تنعم عليهما الا بنعمة واحدة هي جولييت . وقد ربياها بكل عناية ، ونشآها نشأة صالحة على أمل أن تتزوج زواجا سعيدا يصون أملاك الأسرة وسلطانها ويخلد اسمها !

وهكذا كان السيد كابلليتى يعلق آمالا كبارا على الزوج المنتظر لابنته الوحيدة ، لا تقل عما كان يعلق من الآمال على أن تنجب له زوجته ولدا يرث قصره وأملاكه ويكون زعيم حزب البابا فى فيرونا !

***

كان والد جولييت قد اختار لها منذ ولادتها مرضعا طيبة القلب اسمها أوزيبيا

وكانت مهمتها أن تكون دائما الى جوار سرير الطفلة ، ولا سيما حينما يشح لبن الأم ولا يكفى لتغذيتها . وقد قامت بهذا الواجب أحسن قيام ، وأظهرت من شدة العناية والسرعة فى تلبية مطالب الوليدة ليل نهار فى حب واخلاص ملحوظين ، ما حمل الوالدان على أن يقررا اختيارها مربية ملازمة لابنتهما فى المستقبل

وكثيرا ما كانت جولييت فى السنوات الاولى من عمرها ، تدق بقبضتها فخذ أوزيبيا وصدرها ، وتشد شعرها وثوبها فى شدة وعنف ، فلا تبدى هذه أى تذمر أو شكوى ، بل تتلقى ذلك بكل ارتياح وسرور

ولم تكن مطالب جولييت الصغيرة من مرضعها الحنون تنقطع طول اليوم . فهى لا تنى تصيح بها لتخبرها بأنها تشعر بالجوع ، أو العطش ، أو بالحاجة الى تبديل شىء من الملابس أو الرغبة فى نوع من أنواع اللعب واللهو ، وما الى ذلك من مطالب الاطفال

وحدث مرة أن سمعت المرضع الطيبة القلب جولييت وهى تهتف باسمها قائلة :

ـــ أوزيبيا .. أوزيبيا .. تعالى انظرى !

ولما خفت اليها ، وجدتها تبكى وتنظر الى خدش بسيط فى يدها ، فأخذت فى تضميده ومواساتها فى حنان وهى تقول :

ـــ لا تخافى يا عزيزتى لا تخافى !

وكانت أوزيبيا دائما تسارع الى تلبية مطالب جولييت ، مهما تكن تافهة . كما كانت تدخر لديها قطعا كثيرة من الحلوى اللذيذة لتعطيها قطعة منها من حين الى حين

وفى بعض الأحيان كانت جولييت تستيقظ فى فراشها ليلا وتنادى مرضعها قائلة :

ـ أوزيبيا .. أوزيبيا ...

فاذا خفت اليها ، وسألتها عما تريد ، قالت لها جولييت فى دلال :

ـ أريد أن أنام فى فراشك ، لأنه أدفأ من هنا !

وحينئذ كانت أوزيبيا يزايلها الهدوء الذى يغلب عليها ، وتجيبها محتدة :

ـ ماذا تقولين أيتها الوقحة ؟ .. انى أريد أن أستريح وأنام .. هل يجب أن أسهر على كل رغباتك ؟

على انها كانت لا تلبث قليلا حتى يعاودها الهدوء والحنان ، فتربت كتف صغيرتها المحبوبة ، وتقول لها :

ـ تعالى يا عزيزتى . تعالى يا حياتى !

وبقدر ما كانت أوزيبيا تلقى من مضايقات جولييت ومعاكساتها ، كانت تزداد حبا لها وعطفا عليها واخلاصا فى خدمتها وتسامحا ازاء هفواتها

وكثيرا ما حدث أن أتلفت الطفلة فى عبثها قطعة من الأثاث ، أو حطمت ابريق ماء أو مزقت قطعة من الدانتلا وما اليها ، فكانت المرضع المخلصة تتبرع بالدفاع عنها ، وتدعى أنها هى نفسها التى اقترفت ذلك لكى تجنبها ما عسى أن ينزل بها من عقاب

وهكذا شبت جولييت على الثقة باخلاص أوزيبيا ووفائها ، فبادلتها حبا بحب ووفاء بوفاء

وكان طبيعيا أن يحرص والدا جولييت على أن يوفرا لها فى قصرهما كل ما ينبغى لتربيتها تربية صالحة جديرة بوريثة مجد الأسرة وثروتها وسلطانها

وقد درباها على الطاعة قبل كل شيء ، طبقا لما تقضى به تعاليم الدين ثم عوداها الا تتهور أو تندفع فى قول أو عمل ، وألا تكون لجوجة أو مسرفة . وغرسا فى نفسها وجوب اختيار الألفاظ فى أحاديثها لئلا تسوء سمعتها بين الناس . وعلماها الحياكة وغزل الصوف ، لتستطيع أن تقدر ـ وهى الغنية المترفة ـ مايعانيه الفقراء الذين يؤدون أشق الأعمال مضطرين !

وكذلك حرص والداها على الا يعلماها القراءة والكتابة ، لأن قواعد السلوك فى تلك العصور الوسطى كانت لا تسمح بتعليم الفتاة أن تقرأ وتكتب الا اذا كانت تعد نفسها لتصير راهبة . وكان الاعتقاد السائد

فى ذلك العصر أن جهل النســـاء بالقراءة والكتابة مما يحول دون وقوع كثير من الشرور • وكانت هناك روايات كثيرة وأقاصيص تدور حـــول تأييد هذا المبـــدأ • فبواسطة الكتابة استطاع أبطال هـــذه الروايات والأقاصيص أن يتصلوا بسيدات وفتيات شريفات نبيلات ، وأن يفسدوا عقولهن وقلوبهن بعبارات ما كانوا ليستطيعوا أن يخاطبوهن بها • وعلى هذا لم يكن لأية زوجة ، حتى لو كانت ملكة ، أن تقرأ مايرد اليها من الخطابات التى ليست من زوجها بل عليها فى تلك الحالة أن تعقد مجلسا لذلك ، وأن يتولى غيرها قراءة الخطاب !

وكل ما تعلمته جوليت أنهـا حفظت عن ظهـر قلب بعض آيات الانجيل ، لتتلوها عند الصـــلاة • كما تعلمت أن تمشى متئدة اذا دخلت الكنيسة ، وألا تحدث أية ضـــجة فى طريقها الى الموضـــع الذى تجلس فيه هناك لســماع القداس • وألا تدير رأسها أو وجهها ذات اليمين أو ذات اليسار ، لأن البنت ذات التربية الصالحة يجب أن تنظر أمامها فى خـــط مستقيم ، فاذا أرادت أن تنظر الى جهة أخرى فيجب عليهـــا أن تتجه اليها بجسمها ووجهها معا !

وعلموها أن تقـــاوم الغريزة ، وألا تـــكون ميالة الى المخاصمة أو الى المعاتبة وألا تكون سريعة الغضب

وأخيرا علموها بعد أن صارت تحسن فهم الامور ، قواعد الآداب والسلوك ، ومن بينها أنه يجب على المرأة ألا تدع أحدا يقبلها الا اذا كان شخصا هى كلها له ، وألا يمس أحد بيده ثديها الا اذا كان زوجها !

أسعد يوم في الحياة

بدت جولييت فرحة مغتبطة جدا حين أتيح لها لأول مرة أن تحظى بمناولة القربان المقدس فى الكنيسة (١)

وشعرت وهى متجهة الى المذبح فى خطى وئيدة ، بأن حرارة شديدة لا عهد لها بمثلها تتقد فى صدرها

ووصلت الى المذبح وهى فى شبه غيبوبة ، تتوقع وحيا عجيبا عن شىء تؤمله فى غموض دون أن تعرف كنهه !

وبعد أن انتهت من المناولة ، بقيت هنيهة واقفة فى صمت وذهول، وعيناها كالمطبقتين . ثم عادت الى الموضع الذى كانت تجلس فيه قبل المناولة ، شاعرة بأن جسمها أخف كثيرا مما كان ، وبأن قوة خفية تكاد ترفعها عن الارض ، أو أن الملائكة يحملونها على أجنحتهم النورانية غير المرئية

وفى مساء ذلك اليوم أقام آل كابلليتى مأدبة عظيمة فى قصرهم ، قدمت فيها ألوان مختلفة من أطايب الطعام والشراب ، وراح أفراد الأسرة والمدعوون من الانصار والأعوان يتنافسون فرحين فى التهام لحوم الطير المشتهاة ، واحتساء أجود أنواع الخمور ، وعلت الضحكات من الرجال والنساء على السواء

وكان كل اثنين من الحاضرين يتناولان الطعام والشراب من اناء واحد ، وكأس واحدة . وكلما رفعت احدى السيدات الى فمها كأسا لتجرع ما فيها ، سارع أحد الخدم ووضع اناء تحت ذقنها حتى لا يقع شىء من الخمر على ثيابها !

وشرب القوم فى هذه المأدبة خمورا من اسبانيا ، وخمورا من قبرص ، وخمورا ممزوجة بالعسل أو اليانسون ، أو النبيذ أو الريحان

وكان الخدم يبدون نشاطا كبيرا فى خدمة جميع الحاضرين من الأسرة والمدعوين ، وقد وزعوا على الفقراء كثيرا من قطع الخبز الأسمر وعليها قطع من اللحوم المشوية التى كان الآكلون يقطعونها بأصابعهم

ومع كثرة ما اكل القوم فى تلك المأدبة لم يشعر احد بأى انزعاج ، لأن الخدم كانوا كلما أعلنوا عن لون من الطعام والشراب وأحضروه على المائدة ، جربوه هم أولا ، بعد أن يضعوا فيه غصن مرجان أو سن كركدن أو قطعة من رأس ضفدع وذلك لكى يتحققوا خلوه من أى سم

---

(١) مناولة القربان المقدس يتقدم لها المسيحيون احياء لذكرى « العشاء السرى » الذى جمع للمرة الاخيرة بين المسيح وتلاميذه

يمكن أن يدس فيه بايعاز أحد من أنصار الأمبراطور ، للنكاية بخصومهم من حزب البابا !

***

فى سنة ١٢٩٩ كان روميو قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، وقد ذاعت حينذاك اشاعات عن حرب توشك فيرونا أن تشعل نارها لارهاب مدن بادوا وبارما وريجيو

وكان القوم فى أواخر القرن الثانى عشر اذا أرادوا حربا حشدوا الجنود من الشبان المغرمين بالمغامرات واقتحام الأخطار مثل روميو . أو من الرجال الذين بلغوا عنفوان قوتهم البدنية واتخذوا الحرب صناعة لهم

وكان هؤلاء الرجال والشبان أيا كان الحزب الذى ينتمون اليه تستهويهم هذه المبارزات الجماعية التى كان الناس فى ذلك العصر يسمونها حروبا . وكان كل خمسة أو ستة من المحاربين يؤلفون فصيلة يتولى أحدهم قيادتها ويلحق بها بعض الجنود ليعنى أحدهم بالجياد ، وآخر بأمر المؤنة ،وثالث بالأسلحة ،كما يخصص خادم أو خادمان لنقل الأمتعة . وقد يتبع هؤلاء امرأة مهمتها خدمة الجميع

وهكذا كان المحاربون قليلى العدد ، ولكن خلفهم فى المؤخرة عددا كبيرا من الرجال يؤلفون المعسكر والحراس

وكثيرا ما كان الذين سبق لهم أن حاربوا متكاتفين فى حرب سالفة يجدون أنفسهم فى الحرب الجديدة مضطرين الى مبارزة بعضهم بعضا . الا أن الجميع مع ذلك كانوايحاربون فى عزم ودون أى خداع أو مواربة ، أيا كان الحزب الذى ينتسبون اليه

ولما اقتربت ساعة القتال طلب روميو من أبيه أن يأذن له فى أن يشترك فيه ، فأذن له وكلف بونافنتى الذى دربه على استخدام السلاح أن يرافقه ويكون مستشارا له . وكان ذلك فى شهر مايو

كان جيش فيرونا مؤلفا من الفرسان ، يصحبهم عدد كبير من المشاة لكن هؤلاء لا يحاربون بل يبقون فى المؤخرة لحراسة الذخيرة والمؤونة وخدمة المحاربين الفرسان

وكان أكثر هؤلاء وهؤلاء من الهاربين من السجون والمعتقلات . وممن نزلت بهم عقوبات قطع الآذان . ولذلك كانوا اذا صدرت الأوامر بالهجوم والضرب والطعن كثيرا مايهربون تاركين المؤونة والعربات التى تحملها . أما اذا انتصروا فكانوا يركضون سراعا فى مقدمة من يحرقون المزارع والحاصلات ، ويقطعون أشجار البساتين ، ويذبحون قطعان الماشية ويسممون الآبار . ويشنقون الفلاحين ويعتدون على الفلاحات أو يعذبونهن !

ومع أن عدد المحاربين كان قليلا ، كان منظرهم يدخل الرعب الى القلوب ، بشواربهم المرتفعة ، وأثوابهم المزركشة وسيوفهم ذات الحدين والنصال الطويلة الحادة

وكانت فرقة المشـــاة فى جيش فيرونا تتألف من ألف رجل من حاملى الأقواس والسيوف ،يمشون بأقدام قوية تهز الارض تحتها ،وهم يرتلون الأناشـــيد الحماســية والدينية ، ويصيحون مهددين متوعدين الخصوم بالويل والموت الأليم !

وكان الفرســـان الألف يســيرون فى المقدمة كالتماثيل ، تغطيهم الدروع الســابغة من قمة الرأس الى اخمص القــدم ، وأسلحتهم تلمع تحت أشــعة الشمس ، وخيولهم مغطاة بنسيج من الزرد يحميها من ضربات الخصوم حين يشتد الهجوم بالرماح والسهام

وقد تعود أولئك الفرســـان أن يطعنوا بأســـنة رماحهم وجوه خصـــومهم حاملى الأقواس ، كما تعودوا أن يخترقوا صـــفوف المشاة ويطعنوا الهاربين منهم . وفى كثير من الأحيان كانوا يهجمون على العدو متكاتفين كأنهم قطعة واحدة ، وقد تعـــودت جيادهم حومة القتال فكانت تنطلق بهم تسابق الريح بين صفوف الأعداء !

وانخرط الشـــاب روميو مونتيكى فى سلك هذا الجيش ، وكان ريش خوذته القرمزى وصلابة الخوذة التى تغطى وجهه ، واحكامه شد غطاء كتفيه وذراعيه وفخذيه وركبتيه ، مما جعله يعتقد أنه لن يصاب بأى ضربة تورده حتفه

ولهذا ذهب الى القتال بنفس واثقة وعزم ثابت وقلب فرح مثـــل كل الشبان عندما يذهبون للاشتراك فى مغامرات خطرة !

وقبل أن يغادر قصره رأى احدى الخادمات تذرف الدمع فصـــاح بها : « لماذا تبكين ؟ »

فقالت الخادم : « لأنى أخشى أن تقابله هناك فى الحرب »

فسألها : « من هذا الذى قد القاه هناك ؟ »

فقالت : « الرجل الآتى من الشرق ، لقد قال المنجم جوالتييروس يوم ميلادك أنه يجب أن تحاذره . وقد سمعت ذلك المنجم يومئذ وهـــو يقول ذلك ورأيت فى وجهه عبوساً وتفكيرا ! »

فضحك روميو وقال لها :

ــ دعى هذاالخوف . قد سمعت أنا أيضا هذه النبوءة ،عن الرجل الذى يجب أن أحذره مع أنه ليس خصـــما لى . وقد قيل انه سيكون جالســـا حين القاه . فهل من عادة المقاتلين أن يحملوا معهم مقاعد ؟ !. كما قيل انى سأعطيه مالا ! فهل أنا ذاهب الى ميدان القتال لأوزع مالا أم أوزع الضربات القاتلة ؟ .. لا .. لا ! .. لا داعى لأى شىء من الجزع أو الخوف بسبب نبوءة غير معقولة كهذه !

ثم قبل روميو خدى الخادم ، وركب جواده فى رشاقة ، ثم همزه فانطلق بهالى حيث يلحق بالجيش فىالمكان الذى تجمع فيه ليبدأ السير الى الميدان ، وكان الخدم والفتيات فوق سطح القصر يلوحون لسيدهم بأغصان الاشجار ، هاتفين له بالنصر وطول الحياة !..

ســار جيش فيرونا لملاقاة أعدائه فى ساعة مبكرة من الصباح ، وكان الجو لايزال رطبا . وعند الظهيرة . توقف الجيش .. لتناول الغداء والراحة قليلا ، ثم واصل زحفه وحوافر خيله تدك الطرق دكا . وكان اذا رأى فى طريقه شــجرة مثمرة قطعها رجاله لأخذ ثمرتها . واذا مروا بقطيع من الحيوان استولوا عليه ليكون طعاما لهم . وقد يذبحون دجاجة للاستيلاء على بيضة فى بطنها !

وأخيرا لاح العــدو عند أقصى الأفق . ورأته الطليعة . فــوقف الجيش فى الأماكن المناسبة للقتال . واشتبك رجال فيرونا مع جيوش بريشيا ومانتو واحتدم العراك فى شــدة واستبسال . ولما خيم الظلام وكفت الجيوش عن القتـــال ، أحصى الفريقان ضحاياهم فاذا كل فريق قد فقد اثنى عشر من رجاله وحوالى ثلاثين جوادا

وحدث أثناء الليل أن تســلل بعض الجنود والاتباع من الفريقين الى دير للراهبات قــريب من ذلك الميــدان . ومن العجيب أن هؤلاء وهؤلاء سرعان ما ألف بينهم حب الســلب والفجور فهجموا على الدير معا ، وأخذوا ينهبون ما تقع عليه أيديهم ويذبحون من لا يستسلمن لهم من الراهبات !

ولما علا الصياح والجلبة وظهرت حقيقة انحال لقواد الفريقين، هرع بعضهم الى الدير ، وأخذوا يفرقون المعتدين بالسياط حتى طردوهم من الدير . على ان هؤلاء الجنــود والأتباع من الفريقين ، كانت الخمر قد لعبت برؤوسهم ، فتجمهروا أمام الدير ، وراحوا يتعانقون ويســكبون الدموع متعاهدين على أن يكونوا اخوة الى الأبد . وهكذا اضطر القواد الى اســـتعمال الكرابيج مرة أخــرى ليردوا الجنود الســكارى الى المعسكرات !

***

لما بزغ الفجر رأى عساكر فيرونا أن مواقعهم مناسبة ، لأنهم كانوا على مرتفع من الارض تمتد أمامه السهول . فجمعوا كل ماكان عندهم من الدروع ووضعوها أكداسا بحيث يراها الأعداء ، فيخيل اليهم أنها جيش أحتياطى عظيم !

ثم استؤنف القتال فى وحشية ، وأبدى كل من الفريقين براعة وشجاعة عظيمتين ، ولكن النصر كتب أخيرا لجيش فيرونا ، فأسر أربعين من جنود الأعداء ، واستولى على عدد كبير من العربات والمؤونة . ثم عاد فى فخر وزهو الى المدينــة حيث قتل الأسرى ما عــدا أثنى عشر منهم أرسلهم الى بريشيا ومانتو ، لينشر منظرهم الذعر والهول بين أهليهما الثائرين .

وفى تلك المعركة أصيب روميو أصابتين أذ مس سهم كتفه دون أن يصل النصل الى اللحم والاعصاب ، ولمس دبوس صــدره فحطم ضلعين فيه ، وتدفق الدم على ثيابه ، وأغمى عليه . وكان حامل سلاحه قد أفترق عنه فى معمعة القتال ، فظن الجنود الذين حــوله أنه مات وتركوه وشأنه فى الميدان !

وانعشته رطوبة الجو فى الليل ، فأفاق واستوى جالسا ، واخذ يتلفت حواليه فرأى فى ضوء القمر جوادا منفردا يرعى بعض الاعشـــاب ، فتحامل على نفسه ونهض فسار اليه وامتطاه فى عسر . ولما وصل الى المعسكر استقبله رفاقه بكل ترحاب مهنئين بالنجاة !

وقد تحمل روميو آلامه فى صبر ، ولم يبد أى تذمر أو شكوى ، بل أبى أن يضمدوا جراحه واكتفى بأن شرب بعض المنعشات

وبعد أن شرب قواد الجيش وجنوده نخب الانتصار ارتمى روميو على الارض مثل زملائه وغط فى نوم عميق . وفى صباح اليوم التـالى شعر بحمى خفيفة فمسحوه بالخمر والزيت . وقد شفى بعد ذلك لا بفضل العناية به بل بقوة اعتقاده بأنه لم يكن مريضا !

روميو يمقت النساء

عاد روميو الى القصر ، فخلع عن جسمه درع جلد الثور التي لم تفارقه منذ ثمانية أيام ، وكانت رائحة العرق والحديد والجلد تفوح منها بقوة ، مما زاده شعورا بالزهو والفخر ، وجعله ينظر الى نفسه على أساس أنه صار رجلا له شأنه وخطره بين الرجال !

ولاحظ في الأيام التالية تغير النظرات اليه من النساء اللائي يلقاهن فى الطريق . وكان من عادة الشبان الذين فى مثل عمره أن يميلوا غالبا الى الملذات ، وأن يلقوا بأنفسهم فى مغامرات تافهة عديدة يظهرون فيها غرامهم • أما روميو فلم يكن يأبه كهؤلاء بصغائر الأمور • بل كان ورعا تقيا يحترم عقله وجسمه ، وهكذا عاد بعـــد أن انتهت الحـــرب الى ممارسة التمرينات العسكرية ورياضة الصيد والفروسية

وكان حامل سلاحه كثيرا ما يقول له :

ـ كن على حذر دائم من الفتيات !

وكذلك كان أبوه لا يفتأ ينصح له ويردد على سمعه أن تلبية نـداء الجسد مفسدة للنفس ، وان على الرجل العاقل أن يحذر المـــرأة ويبتعد عنها ما استطاع الى ذلك سبيلا •

وكان الشاب يهز رأسه مبتسما وهو يستمع لهذه النصائح ، ثم يقول :

ـ لا خوف على من هذا الخطر ، فأنا بطبعي أمقت النساء !
وكان هذا الجواب يملأ نفس حامل سلاحه أعجابا به فيقول له :

ـ أن السماء لتحميك مادمت تفكر هكذا ، ولا شك أن سـيدا نبيلا مثلك ياسيدى يجب أن يكون لزوجته فقط ، فأن أخطار الشيطان أشـــد كثـــيرا من أخطار الحرب • فاذا أمكنك أن تتغلب على أغرائه كنت جديرا بأن تشرف أسمك وأسرتك

والواقع أن روميـــو كان يمقت النساء ، كما كان يخجل منهن فى الوقت نفسه • ومن هنا كان شديد الحرص على اجتنابهن ، وكان يرى أن شريكة حياته فى المستقبل ، يجب أن تكون أرفع قدرا وأظهر نفسا من جميع النساء ، وكثيرا ما كان يفكر فى اختيار هذه الشريكة الموافقة التى تتوافر فيها هذه الشروط ، ولكن غريزة خفية كانت تدفعه الى الاحجـــام والتأجيل

ولم يكن روميو يعلم أن حرصه على اجتناب النســــاء قد زاد فى أعجابهن به وميلهن أليه !

وكان العجب يأخذ منه كلمـــا لاحظ نظرات التحبب والاغراء التي توجهها اليه نساء المدينة فضلا عن الفتيات الخادمات

وحدث يوما أن اعترضت طريقه احدى غانيات فيرونا ، وصرحت له بأعجابها به ، واستعدادها لاستقباله فى أى وقت بمنزلها ، دون أى مقابل !

وتوالت الرسائل الغرامية التى كان الخدم يحملونها اليه من سيدات وفتيات مختلفات • ولما كان يجهل القراءة والكتابة فان كاهن القصر كان يقرأ له هذه الرسائل . وكان ماتتضمنه من العبارات الغرامية الحارة مما ينفخ فيه روح الشمم والكبرياء والاباء ، فيهز كتفيه ســـاخرا ، ويعقب على هذه العبارات بضحك الاستخفاف والاستهزاء !

ولم يســـع كاهن القصر الا أن يعجب بســـــلوك روميو ، وراح يقول له :

ـ أن النساء كلهن فاسدات ! • ألا ترى أنه اذا نام الرجـل فان المرأة توقظه ، فى حين انه لا يجرؤ أن يتحرك بجانبها وهى نائمة مخافة ان يوقظها . أن المرأة حين تجد زوجها حزينا تقول للجيران « انه وُلد فى ساعة نحس » أن الرجال المتزوجين كلهم مســـاكين فالذى يتزوج منهم امرأة نبيلة عليه أن يغسل رجليها ويرفـــع أطراف ثوبها • وزوجة الفقير تكلفه ما لا يطيق وتفرض عليه أن يقوم لها مقام الخدم . والزوجة الشابة تضعف زوجها لتعيب عليه ضعفه ، وتستبدل به من هو أقوى ، والزوجة العجوز تنغص عيش زوجها بغيرتها وكيدها له • وهكذا يا بنى كل النساء لا يمكن أبدا أن يكن راضيات ، فالحرب مســـتمرة الى الأبد بينهن وبين الرجال !

ومرة أخرى قال الكاهن لروميو بعد أن قرأ له بعض تلك الرسائل

ـ أن الشيطان صاحب صيدلية فيهـــا أنواع كثيرة من الســـموم التى هى الخطايا ، وهو يضعها فى علب جميلة مزخرفة ، ويجعل مذاقها حلوا ليغرى الناس بالاقبال عليها . فاذا شئت أن تعيش فى ســـلامة وأمان ، فاحترس من النســاء ، فهن شر مغريات الشيطان !

مرض جولييت

كان الشتاء التالى فى مدينة فيرونا شديد البرد عاصفا غزير المطر وقد مرضت جولييت خلال هذا الشتاء . ولم تكن بعد قد جاوزت الثالثة عشرة من عمرها ، لكنها كانت تختلف كثيرا عن أترابها من الفتيات المراهقات فلم يمتلىء جسمها أو ينتفخ صدرها أو تتبدل هيئتها. بل بقيت برغم نموها السريع رشيقة القد معتدلة الجسم ، فى عنقها وكتفيها حلاوة ، وقد برز صدرها قليلا ، وبقيت عيناها السوداوان تحيط بهما أهدابهما الطويلة وتشع منهما الحيوية والطهارة ، كما بقى أنفها الصغير المستقيم ، وفمها الدقيق ، متناسقين منسجمين . ولو أن فنانا ممن يصنعون التماثيل الدينية رآها حينذاك لوجد فيها خير نموذج لصنع تمثال رائع لقديسة طاهرة ، أو ملاك كريم

وبدأ مرض جولييت فى الوقت الذى اشتد فيه الصقيع حتى جمد الماء فى الأباريق . وكان ذلك فى ذات مساء اذ شعرت بارتفاع حرارتها واضطراب تنفسها ، ولاحظت ذلك أمها فساورها القلق والخوف عليها ، فأمرتها بأن تلزم سريرها ، ثم سارعت الى طلب طبيب شهير فى المدينة ، فزارها فى المساء نفسه وجس نبض الفتاة ونظر فى عينيها مليا ، ثم نظر نظرة فى النجوم وقال :

ــ من حسن الحظ أن القمر فى ربعه الاول ، وعلى هذا يكون العلاج فى هذه الليلة ذا تأثير مفيد !

وعلى أثر ذلك قرر الطبيب أن يبدأ العلاج بالفصد ، وأمر باغلاق النافذة لأن الفصد فى ذلك العصر لم يكن يجرى الا فى الظلام . وجاء الحلاق الذى دعى لفصدها مسرعا ، ومعه مساعده ، وسرعان ما بدأ مهمته فأخذ يفصد قدم الفتاة ، بينما مساعده يتلقى قطرات الدم فى اناء من القصدير .

ولم يشترك الطبيب فى جراحة الفصد هذه ، لأنه لم يكن مما يليق بالطبيب حينذاك أن يمس موسى أو شفرة !

وبينما الدم يسيل من كعب الفتاة ، أخذ الطبيب يتحدث الى الحاضرين وهم سكوت احتراما له فقال :

ــ أن دم الانسان يزن خمسين لترا ، ومن الممكن أن نخرج منه عشرين لترا دون أن يكون فى هذا خطر على حياته أو صحته !

ثم سكت قليلا ، واستأنف كلامه فقال :

ــ لقد شهدت فصد أطفال كثيرين حديثى الولادة ، وعالجتهم فكان النجاح حليفى ، وكتب لهم الشفاء جميعا !

ولما انتهى الحلاق من مهمته تنحى للطبيب الكبير عن مكانه ، فمد هذا يده وضغط عرقا فى قدم الفتاة ، ثم أخرج من كيس كبير معلق بكتفه حقا صغيرا فيه مرهم ، وقال للحاضرين :

ـ هذا المرهم مصنوع فى مدينة كبيرة فى بلاد الهند . وهو مركب من ثلاثمائة واثنين وسبعين نوعا من الاعشاب النـــادرة الثمينة ، ومن شحم تنين أبيض : وساتركه عندكم ليوضع قليل منه عند كبد الفتاة ، ويفرك به ذلك الموضع بعناية ، فالكبد من الاعضاء الاربعة الرئيسية التى يتجمع فيها الدم والاخلاط . وما العروق التى فى الجسم الا قنوات داخلية فيه كالقنوات التى تجرى تحت الارض ومنها يخرج الماء من أى موضع نحفره فيها . وهكذا يتضح لكم لماذا يخرج الدم من أى موضع فتحناه فى الجسم ، على أن المنبع الاصلى للدم فى الجسم ليس سوى الكبد !

ثم جس الطبيب جبين جولييت ، والتفت الى الحاضرين قائلا وسبابته مازالت على جبينها :

ـ حينما يكون القمر فى برج الحمل المتعلق بالرأس ، يتجه نفوذه الى ناحية الرطوبة ، وحينئذ يكون الرأس فيه رطوبة ، ولما كان أى جرح لا يمكن أن يشفى وفيه عفونة ، فالواجب يقضى بأن يجفف رأس المريض أولا وطرد الأخــــلاط منه . وللوصـــــول الى ذلك يجب أن نلجأ الى لزقة مبللة بلبن امرأة ساخن . فهل فى القصر خادم تستطيع أن تعطينا اللبن اللازم لهذا الدواء ؟

فقال السيد كابالميتى :

ـ نعم ، يمكن أن نجد خادما تعطينا اللبن المطلوب

فبدا البشر فى وجه الطبيب وقال :

ـ فى هذه الحالة يمكن أن أؤكد الشفاء . ولكن يجب ألا ننسى ونحن نســـتنجد بالرب كى يشفى المريضة أن نعلق فى عنقها قطعة من الحجر المسمى « سيلبدان » وهو يوجد عادة فى حويصلة طائر الخطاف !

ثم أضاف الى ذلك قائلا :

ـ احرصوا جيدا على أن تمسكوا بالخطاف الذى يستخدم لهذا الغرض قبل أن يمس الارض !

وهنا أخذت السيدة كابلليتى تبكى وقالت للطبيب :

ـ ليس فى ايطاليا الآن ياسيدى أثر لجنس هذا الطائر ، وليس يخفى عليك أنه يكون هنا فى الربيع فقط ، ونحن الآن فى الشتاء !

واصغى اليها الطبيب وهو يومىء برأسه موافقا ، ثم وضع يده على عينيه ، واستغرق فى تفكير عميق ، ليبحث عن مخــرج من ذلك المأزق ، واخيرا قال لها :

ـ لا بأس ياسيدتي ، يمكن أن تستعملوا أثرا من أحد اعضـــاء المريضة نفسها ، على أن يكون هـــذا العضو مما فوق الكتفين كالسن والشعر ، ولا شك فى أن هذا الاثر يقوم مقام ذلك الحجر الذى أشرت اليه !

وانصرف الطبيب على أثر ذلك مودعا بالشكر والاكرام

وعالج آل كابايتى ابنتهم بالطريقة التى رسمها ، وبعد أسبوع دخلت جوليت فى طور النقاهة !

محاولة عقد الصلح

عندما يطرد الربيع الغيوم من الجو ، تنعش روح الحب حيوان البر وطير السماء . وكذلك الانسان تثور فيه نشوة الانتعاش بالحب .

ولا تقف حرارة القوة التى يولدها الربيع فى عروق الناس عند حد حب الانتاج ، بل توقظ غريزة المنافسات والاحقاد فى قلوب البشر !

وحين تجف الارض يسهل مرور عربات الحرب وركض الخيل ، ويمكن اخفاء حركات الجنود بواسطة النباتات والأغصان والأشجار .

وفى المدن ، تهيج الغرائز فى قلوب الناس . وتضطرم نار الخصومات . وكثيرا ماتنشب المنازعات لأسباب تافهة لم يكن الناس ليأبهوا لها أو ليتحدثوا عنها ، لو أن الربيع لم يكن قد جاء وحل محل الشتاء !

وهكذا لم يكد الربيع يقبل على فيرونا ، حتى نشأ فيها خلاف شديد بين أنصار البابوية الملتفين حول آل كابلليتى وبين انصار الأمبراطورية الذين يتزعمهم آل مونتيكى

وتطور الخلاف سريعا ، ففى شهر مارس من ذلك العام وجد المارة فى أحد الأزقة جثة رجل من الفريق الأول ، ولم يمض قليل حتى هجم زملاؤه على منزل أحد أفراد الفريق الثانى ، فقتلوا كل من فيه ، وقذفوا بالأثاث من النوافذ ثم أحرقوه !

وفزع البابويون الى آل كابلليتى . والامبراطوريون الى آل مونتيكى . ونفخ فى الأبواق ، وساح كل نبيل رجاله وحرضهم على القتال

وابدى روميو حماسة شديدة ، واخذ يستعد للسير ركضا والمشعل فى يده ليوقد النيران فى أحياء المدينة التى يسكنها البابويون

وقبل أن يغادر روميو قصر أبيه ، ظهر على الباب رسول من قبل السيد « برتولوميو ديللا سكالا » حاكم المدينة الجديدة ، ثم دخل الى فناء القصر يحف به اثنان من النافخين فى الأبواق ، فلما رأى الاستعداد العسكرى قائما هناك على قدم وساق . صاح بصاحب القصر محذرا معلنا أن الحاكم لا يريد غير السلام والهدوء ، وأنه لن يسكت على أى نزاع بين أهل المدينة

ولزم الامبراطوريون دورهم ساخطين متذمرين . ثم أعلن الحاكم على اثر ذلك انه رغبة فى اخماد المنازعات قرر أن يحتفل قريبا بعيد عظيم ، على أن يشترك فى هذا الاحتفال جميع أهل المدينة

وكان لهذا كله أثر فى تهدئة الخواطر ، وتناسى الاحقاد والخصومات فترك أهل المدينة ما كانوا فيه من استعداد للقتال ، وأخذوا يهيئون

أنفسهم لذلك الاحتفال العظيم ، وللاستمتاع بما ينتظرهم فيه من أسباب البهجة

وكان الاحتفال رائعا حقا ، وهناك فى قصر الحاكم على ضفاف الأديج ، اجتمع أكثر سكان المدينة ، من النبلاء وذوى الوجاهه وغيرهم وقد ساد بينهم الصلح والوئام ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا وغمرتهم موجة من الطرب والحبور

***

كان السيد بارتو لوميو ديللا سكالا قد خلف أباه فى منصب حاكم المدينة منذ اليوم العاشر من شهر سبتمبر سنة ١٣٠١ . وقد بدأ عهد حكمه بأعلان رغبته فى نشر السلام والأمن فى ربوع المدينة ، أذ ليس هنـــــاك مطلقا مايدعو الى أن يتقابل آل مونتيكي وآل كابلليتى ، وأن ينقسم سكان المدينة فريقين متباغضين متعاديين !

وحدد السيد ديللا سكالا يوم الاحد التالى موعدا يجتمع فيه آل مونتيكى وآل كابلليتى فى ساحة الكنيسة ، وبعد انتهاء القداس يتقدم السيد مونتيكي يصحبه ولده روميو نحو السيد كابلليتى . وبعد أن يباركهما المطران يتعانقان علنا ويلثم كل منهما فم الآخر ايذانا بالصلح والوئام بين الأسرتين !

واستيقظت المدينة فى صـــــباح ذلك اليـــــوم العظيم على رنين الأجراس ، ونشرت الأعلام وانشارات على واجهات القصور والدور . وعلقت قرب الخمور على أعواد . ومدت الموائد حافلة بألوان مختلفة شـــهية الطعام والشراب ، وتقاطرت الى ساحة الكنيسة جمـــوع الفقراء والبؤساء وذى العاهات من جميع أحيـــاء المدينة ليـأكلوا ويشربوا ويطربوا ، مشاركين فى أفراح ذلك المهرجان العظيم .

وقبل الظهر بساعتين كنت الساحة تغص بالناس . وبعد الانتهاء من صلاة القداس فتح باب الكنيسة ، وخرج السيد ديللا سكالا لابسا ثوبه المطرز بالذهب تمســك أطرافه من الخلف بعض الوصيفـات . واخترق الساحة فى موكبه هذا بين الاجلال والتعظيم ، ثم جلس فوق المنصة التى اعدت لجلوسه هناك

وسادت الساحة فترة سكون قصيرة ، قطعتها نغمات هادئة ، تصاحب مرتلى بعض الأناشيد الدينية ، ثم بدأ آل مونتيكى يتجمعون فى ركن من أركان الساحة يتقدمهم عميدهم والسيدة قرينته وأبنهما الشاب الجميل روميو . وارتفعت دقات الأجراس ، وأصـــــوات المرتلين داخل الكنيسة ، ثم ظهر آل كابلليتى يتقدمهم عميدهم يعلو وجهه بعض الوجوم وبجانبه قرينته ممسكة ذراعه داعية اياه الى اظهار الاغتبــــاط والابتهاج !

ووقف الفريقان كل منهما تجاه الآخر . ثم نهض السيد ديللا سكالا ، ومشى بينهما فى خطى وئيدة يتبعه حاملو سلاحه وضباطه ،

ورجال الكنيسة وعلى رأسهم المطران . ووقف الحاكم الحازم بعد خطوات ، ثم رفع يديه ووجهه طالبا العون من الله . وعلى أثر ذلك أشار الى رئيسى الأسرتين ليحضرا اليه ، فمشى كل منهما نحوه فى صمت حتى وقفا أمامه ، فأمسك يديهما وأبقاهما مجتمعتين بين يديه ، وتقدم المطران فباركهما ، بينما علا هتاف الشعب ، واختلط بدقات الأجراس المدوية وأصوات الأبواق

ولما تعانق النبيلان ، أراد الحاكم أن يزيد فى قوة تصافيهما فمد يديه وأمسك بهما كتفيهما ، مقربا فم كل منهما من الآخر ، لتكون القبلة المتبادلةأشد وأفعل !

***

استجاب النبيلان : السيد مونتيكى ، والسيد كابلليتى ، لرغبة الحاكم ، فأخذ كل منهما يقبل فم الآخر فى شدة وحرارة بين ضجة الاحتفال

وحدث أن دخلت شعرات من لحية السيد كابلليتى فى فم السيد مونتيكى وهما يتبادلان القبل ، فلما شعر بها على طرف لسانه ، بدا فى وجهه تقزز شديد ، ثم أرتد فجأة الى الوراء فى اشمئزاز وامتعاض ، ومد يده الى فمه فأخرج بين سبابته وابهامه شعرة من تلك الشعرات ، ثم راح يخرج لسانه ويحركه فى سرعة كمن يبصق ليطرد بقية الشعرات، التى لصقت بأسنانه ، وفسر آل كابلليتى هذه الحركة بأنها اهانة موجهة اليهم فى شخص عميدهم . وفى مثل لمح البصر تحرك الشاب تيبالدو ابن أخى السيد كابلليتى حركة مسرحية وصاح قائلا :

ـ هذه أهانة لا يمكن أن نقبلها !

ثم استل سيفه . واقتدى به من كانوا حوله من أفراد الأسرة وأنصارها . وسرعان ما امتشق النبلاء من الفريق الآخر سيوفهم استعدادا لما قد يحدث !

وهنا صاح السيد ديللا سكالا بالفريقين قائلا :

ـ ما هذا أيها السادة ؟ . الزموا الهدوء والسكون !

ثم تقدم وعيناه تتقدان بالغضب ، ففرق أنصار النبيلين الذين كادوا يلتحمون ، وكذلك صنع المطران فمد عكازه ليحول بين هؤلاء وهؤلاء على أن سلطة الحاكم المطلقة وسلطة المطران ممثل الله لم تكفيا لتهدئة الخواطر الثائرة ، واعادة السلام الى النفوس التى كانت لا تزال تفيض بالحقد والبغضاء !

وهكذا أخذ الفريقان يتبادلان السباب وعبارات التحدى المثيرة ، وفشلت محاولات الحاكم لاسكاتهم ، وسرعان ما عادوا الى امتشاق السيوف وأخذوا يتضاربون بها !

وأمر الحاكم بأن تسد الطرق المؤدية من الساحة الى داخل

المدينة ، منعا لانتشار النبأ المزعج وزيادة الهياج . ولكن أوامره وتعليماته لم تنفذ بدقة ، فوصل النبأ الى كثـــيرين ممن كانوا خارج الساحة من أنصار الفريقين ، وهرعوا اليهـــا مسلحين بمـــا وصلت اليه أيديهم من سيوف ورماح وغيرها . وكان الطريق الى الساحة زاخرا بأفواج أخرى ممن جذبتهم من الحقول البعيدة أصوات الأجراس والأبواق الداعية الى المشاركة فى الاحتفال . بينما آثر كثيرون أن يشاركوا فيه من بعيد ، فبقوا فى المزارع وجنبات المدينة ينشدون ويرقصون ويتعانقون ، وهم لا يدرون شيئا عما يجرى فى الوقت نفسه داخل الساحة من القتال !

الفصل الثالث

روميو بين النساء

جولييت فى خطر

كان تيبالدو كابلليتى ابن عم لجولييت ؛ وفى مثل سنها ؛ وقد كسب أبوه أموالا طائلة من التجارة ؛ وأقصى أمانيه ان يزوجه جولييت ابنة أخيه الأكبر عميد الأسرة ليكون شريكها فيما ترث من لقب وجاه وسلطان

ولم يكن السيد كابلليتى أبو جولييت يمانع فى أن يتم هذا الزواج ، بل كان يرى أن تيبالدو أحق بجولييت من سواه • ولكن زوجته كانت كلما خاطبها فى هذا الشأن لا تكاد تكتم نفورها ، ثم تسارع الى تغيير مجرى الحديث ، بعد أن تؤكد لزوجها أن ابنتهما لم تبلغ بعد السن المناسبة للزواج •

وكان هو يتظاهر دائما بموافقته على رأى زوجته ، ثم يضيف الى ذلك قوله :

ـ لا ضرر مطلقا فى أن ننتظر ، فجولييت مازالت صغيرة حقا • على أنه من الحكمة أن نبقى الباب مفتوحا لتيبالدو وأبيه ، منعا لاثارة الغضب والنفور !

أما جولييت نفسها ، فكانت تميل الى تيبالدو منذ حداثتهما وتعجب بتلطفه وتظرفه أمامها ، كما تقدر حرصه على الامتثال لأمرها ؛ ومسارعته الى تلبية كل ما تبديه من رغبات •

وكان تيبالدو قصير القامة ، ذا رأس كبير يتدلى شعره المتهدل حتى يكاد أن يلتصق بحاجبيه الكثيفين • وكانت ذقنه المربعة تضفى على هيئته شيئا من الغلظة والفظاظة ، ويؤكد هذا أنه كان حاد الطبع سريع الغضب مرهف الاعصاب شديد العناد

على أنه فى حضرة جولييت كان يبدو دائما ظريفا مطيعا ، يحسن الاصغاء الى كل ما تحدثه به ، ويضع نفسه فى خدمتها باخلاص • ولم يكن ينسى أن يقطف الازهار التى تعجبها ويقدمها لها فى اجلال ، وفى الرحلات التى كان يسمح لهما بالخروج فيها معا لاستنشاق الهواء النقى والتمتع بحرارة الشمس ، كان يأخذ بيدها ويعاونها على السير ويخلى العقبات التى تعترض طريقهما • وكثيرا ما اصطحبها فى رحلة بالزورق فى النهر ، حيث كانت هى تجلس هادئة وادعة منشرحة الصدر ، فى حين يمضى هو فى التجديف بساعديه القويين ؛ فى غير كلل ولا ملل !

وفى بعض الاحيان كانت جولييت تقطع تأملاتها لتهتف به قائلة :

ـ تيبالدو ••• تيبالدو ••

فكان يلتفت اليها مرهفا سمعه لما تريد أن تقوله ، دون أن ينقطع عن التجديف ، وحينئذ تسأله :



جولييت فى خطر

ـ هل تعجبك عيناى ؟ ... وهل يروقك أن تنظر الى وجهى ؟

وكان الشاب يجيبها بصوت هادىء حنون :

ـ ليس فى فيرونا كلها أمرأة ، تستطيع أن تدانى جولييت فى جمالها ورشاقتها ولطفها ورقتها ، فضلا عن سمو مكانتها . وليس فى الدنيا كلها ما يملأ فؤادى سرورا وبهجة كما يحدث حين أراك يا ذات الملاحة والبهاء !

وفى بعض الاحيان كانت تفاجئه سائلة :

ـ قل لى يا تيبالدو .. ماذا تصنع اذا طلبت اليك أن ترمى بنفسك فى ماء النهر الا ن ؟

وهنا كان تيبالدو ينتصب واقفا فى الزورق ، ثم يهم بخلع سترته وهو يجيب قائلا :

ـ ان حياتى كلها ملك يمينك ، ولك أن تتصرفى فيها كما يحلو لك !

وقالت له وهى تحاوره خلال نزهتها ذات يوم :

ـ أذا سألتك أن تكف عن التجديف لكى تضطجع هنا تحت قدمى ، فهل تجيبنى الى ذلك راضيا ؟

وقبل أن يجيبها واصلت كلامها فهتفت به قائلة :

ـ لا تقل شيئا . ولكن اقترب منى ، وانظر الى السماء ! .. ان منظرك وأنت كذلك ألطف كثيرا من انهماكك فى التجديف ، ومن تقطيبك ما بين حاجبيك الكثيفين كأنما تفكر فى مشاجرة !

ولم يسع تيبالدو بعد سماع هذه الكلمات العذبة إلا أن يغمض عينيه ويسلم وجهه ليد الفتاة وهى تربته فى ترفق وحنان !

***

هناك فى ضواحى فيرونا ، كان يقوم قصر شاهق حصين ، تمتد حوله حقول واسعة وغابات تتخللها البساتين . وقد آل ذلك القصر وما حوله الى النبيل السيد باولو كانتاريللى ، ذى الوجه البارز العظام، واللحية الطويلة التى تتخللها شعرات بيضاء .

وفى كل أسبوع ، كان السيد كانتاريللى يذهب الى فيرونا مرتين ليزور السيدة لوكريشيا الغانية المشهورة بجمالها فى المسكن الذى وهبه لها من قبل مع كثير من الملابس الثمينة وجواد لتركبه فى نزهاتها وتنقلاتها أما بقية أيام الاسبوع فلم يكن له من عمل يذكر خلالها ، اللهم الا خروجه للصيد والقنص .

وكانت السيدة لوكريشيا ، تمتاز فضلا عن جمالها الباهر وجاذبيتها القوية بميلها الشديد الى البر بالفقراء والمساكين ، وكانت جموعهم تحيط

بها كلما توجهت الى الكنيسة ، فتقف بينهم بقامتها الفارعة وتوزع عليهم جميعا اعانات مالية سخية ومع كل منها ابتسامه لطيفة أو عبارة رقيقة ، فتنطلق ألسنتهم بالثناء عليها والاشادة بفضلها وبسخائها الذى صار مضرب الأمثال ، وأعلى من مكانتها بين عامة أهـــل فيرونا وضواحيها ، ولا سيما انهـــا كانت تحرص بجانب تلك الاعانات الفردية على أغداق العطايا والهدايا والهبات من حين الى حين على الكنائس والأديارة وغيرها من مؤسسات العبادة ٠

وقد سمع روميو مونتيكى بذلك كله ، وشهد بعضه بنفسه ، كما أنه شهد لوكريشيا نفسها غير مرة فى الكنيسة تستمع مثله للقـــداس ، فكان جمالها يلفت نظره كمـــا يلفت أنظار الآخرين ٠ وكان يعجب على الاخص بشبابها الناضر دائما ووجهها الذى لا يفارقه الابتسام ، ويديها الرشيقتين الدقيقتين ، برغم ميل جسمها الى الاكتناز !

على أنه لم يكن يعلم شيئا عن احترافها الاتجار بجمالها ، الى أن صادفها فى الكنيسة يوما ، وكان صديقه مركوتشيو معه حينذاك فسأله :

ــ من تكون هذه الاميرة الشابة التى يبهر جمالها الابصار ؟

فنظر اليه مركوتشيو متعجبا وقال :

ــ أية أميرة تعنى يا عزيزى ؟ ٠٠ انها لوكريشيا الغانية التى تتجر بجسدها !

فنظر روميو الى مركوتشيو شزرا وقال له محتدا :

ــ ماذا تقول ؟ ٠٠ كيف تسمح لنفسك بتوجيه اتهام شنيع كهـذا الى سيدة نبيلة جميلة محسنة ؟!

وابتسم صديقه ساخرا ، ثم أردف قائلا :

ــ هذه هى الحقيقة يا صديقى ! ٠ فهذه السيدة الجميلة المحسنة ليست متزوجة ، وهى فى الوقت نفسه ليست طاهرة ! ٠

ثم أخذ يروى له كثيرا مما يعرفه الناس من سيرة حياتها ، وأسماء النبلاء الذين وقعوا فى غرامها وفى مقدمتهم السيد كانتاريللى

وبقى روميو بعـــد ذلك متجهما طول يومه ، وتزاحمت فى مخيلته أفكار شتى وصور عجيبة تدور كلها حول حياة تلك الغانية الجميلة ٠ وشعر فى قرارة نفسه بكراهية شديدة لذلك النبيل العجوز الذى علم من مركوتشيو أنه يستأثر بها دون أن تكون زوجته ٠ ومضى فى تصوراته وخيالاته هذه مشغولا بها عن كل ما حوله ٠ وتخيل نفسه خلال ذلك غـير مرة وهو يقتحم وسيفه فى يده قصر ذلك النبيل العجوز البغيض ، أو الدار التى جعلها فى فيرونا مسكنا لتلك المرأة الجميلة المسكينة ليزورها فيها مرتين فى الاسبوع ٠٠ وكان الشاب الطيب القلب يتنفس الصعداء ويشعر بغير قليل من الارتياح اذ يصور له خياله انه استطاع انقـــاذ

الغانية من تلك الحياة المهينة التى تحياها مضطرة فيما يعتقـــد مع ذلك النبيل !

***

كان السيد كانتاريللى قد رأى جولييت غير مرة فسحره جمالهـــا وشبابها الناضر ، وأخذت نفسه تحدثه بأن يجعل منها زوجة له · ثم رأى من الحكمة أن يسارع الى الاعراب عن رغبته هذه مخافة أن يسبقه أحـد الى طلب يدها ، فكلف أحد أصدقائه أن يزور السيدة كابلليتى ويفاتحها فى الامر !

وما كادت السيدة كابلليتى تقف على فحوى الرسالة التى أبلغهـــا اليها ذلك الصديق حتى تجهم وجهها وصاحت به قائلة :

ـ ماذا تقول ؟! ·· ابنتى جولييت يتزوجها رجل تخطى الاربعين ؟ أهذا معقول ؟

وعبثا حاول رسول السيد كانتاريللى أن يقنع السيدة كابلليتى بأن ابنتها ستكون سعيدة بهذا الزواج ، وقالت له أخيرا :

ـ ان جولييت ما زالت صغيرة ، وليس ثمة أى داع الى التفكير فى زواجها !

على أن هذا الرد الذى خيب آمال السيد كانتاريللى ، لم يكن ليطفىء جذوة رغبته المتقدة فى الاقتران بجولييت ، بل زاد هذه الرغبة اشتعالا فأصبح منذ ذلك الحين ولا هم له الا فى التفكير فى أمر ذلك الزواج ، واستنباط مختلف الحيل لاتمامه !

وحدثته نفسه بأن يكلف بعض أعوانه ، أن يختطفوا الفتاة اختطافا ؛ ثم يهربوا بها فى الظلام بعيدا من فيرونا ·· الى أحد قصوره فى البندقية مثلا ، أو الى مكان يعينه لهم فى ميلانو

وطفق يدرس هذا المشروع ويقلبه فى مخيلته · وقضى فى ذلك أياما عديدة ، ولم يعد يزور لوركريشيا الا لماما ، كما شغل عن رحلات الصيد والقنص ؛ وصار يقضى أكثر وقته مستغرقا فى التفكير ·

وفى أثناء ذلك كان روميو هو الآخر مازال ماضيا فى تصـــوراته وخيالاته وتدبير مشروعاته لانقاذ السيدة لوكريشيا من بؤرة الرذيلة التى تردت فيها !

ولم يكن يخالجه أى شك فى أن الغانية الجميلة المحسنة لا رغبة لها فى تلك الحياة ، وانما اضطرت اليها اضطرارا ، ولهذا لن تتوانى لحظة عن الانقياد لرغبته فى انقاذها من تلك الحياة ، بل لا يمكن أن تنسى له بعدئذ ذلك الجميل

ورسم روميو خطة الانقاذ ، ثم شرع فى تنفيذهـــا فتنكر فى زى خادم ، وأخذ يطوف حول مسكن الغانية فى فيرونا ، ويختلط بخدمهـــا

مستزيدا من أخبارها ، سائلا عن المواعيد التي يزورها فيها النبيل العجوز ، وعن شعورها نحوه • وهل تبدو سعيدة بعشرته غير المشروعة ، أم يساورها القلق والكآبة وتعرب أحيانا عن تبرمها بحياتها معه ورغبتها في أن تستعيض عنها بحياة أسمى وأطهر مع زوج شرعي شاب ظريف ؟

وحينما توجه السيد كانتاريللي الى مسكن لوكريشيا لاول مرة بعد ذلك ، أسرت اليه خادمتها حديث ذلك الخادم ، والاسئله العجيبة الكثيرة التي جاء يطلب الاجابة عنها ، ثم قالت له :

ــ ان مجيء هذا الخادم الفضولي ولا شك يخفي وراءه أمرا ، وأكبر الظن أنه لم يكن الا رسولا من سيد شاب مغرور سولت له نفسه أن يستأثر دون سيدي بجمال غانيته • ولهذا يجب أن تضاعف الحراسة على المسكن • كما يجب أن تكون هناك رقابة داخلية دقيقة !

وفهم السيد كانتاريللي ما أشارت اليه الخادمة المخلصة له • والواقع أنه كان منذ تعلق قلبه بحب جولييت ورغب في الزواج بها ، قد فكر في قطع كل علاقة له بلوكريشيا غير عابىء بما يكون لذلك من أثر في نفسها ، أما أن تكون هي البادئة بهجره والتنكر له بعد حبه لها واكرامه اياها وثقته فيها ، فذلك آخر ما كان يخطر بباله • ولا يمكن أن يسكت عليه بأية حال •

وهكذا ثار غضب السيد كانتاريللي ، وتملكته الغيرة الشديدة على الغانية التي جعل منها خليلته المختارة • وكان ان منح الخادمة التي أفضت اليه بذلك السر مكافأة سخية وأوصاها بالتزام الكتمان التام • بدلا من أن يغادر مسكن لوكريشيا بعد ساعات ، أو صباح اليوم التالي على أكثر ما كان يقدر ، بقي مقيما به دون أن يغادره قط ثلاثة أسابيع !

وفي غمرة انشغاله بأمر لوكريشيا ومراقبة حركاتها وسكناتها ، ومراقبة مداخل المسكن ومخارجه خشية أن يختطفها أحد ، نسي أو كاد ينسي ماكان يفكر فيه من أمر الزواج بجولييت ، أو اختطافها وارسالها الى البندقية أو ميلانو !

***

وفي شهر يناير سنة ١٣٠٢ وقع حادث كان له في نفس روميو أثر كبير ؛ ولم ينسه بعد ذلك طول حياته •

كان برتولوميو ديللاسكالا حاكما طيبا حليما لا يحب المخاصمات والمنازعات ، ويعطف كل العطف على الادباء والفنانين • ومن هنا ما كاد يلجأ الى فيرونا « دانتي اليجيري » الشاعر الايطالي المشهور بعد أن حكم عليه بالنفي أنصار البابا في فلورنسا ، حتى أكرم وفادته وأحسن ضيافته • وكان دانتي قد قام بدور سياسي كبير منضويا تحت لواء الحزب البابوي • فلما انشق على الحزب فريق أعضائه السود ، نفوه فيمن نفوهم من الاعضاء البيض •

وقد تحدث الشاعر في كتابه « الفردوس » عما لقي من لطف وكرم

من « ذلك اللومباردى العظيم الذى كان على رأس السلم فى شعاره صورة العصفور المقدس » . وكان يعنى برتولوميو ديللا سكالا وشعار أسرته المرسوم على هيئة سلم من الفضة فوق قطعة من المخمل الازرق ، وفى أعلاه صورة نسر الامبراطورية المقدسة باسطا جناحيه

وكان دانتى يومئذ فى السابعة والثلاثين من عمره ، اذ ولد فى فلورنسا سنة ١٢٦٥ . ولم يؤلف بعد كتابه « الكوميديا الآلهية » . لكنه كان معروفا بأناشيده وقصائده وانغماسه فى السياسة المتطرفة لحزب « الجيبلين » وقد شن قبل ذلك ببضعة أشهر حملة قلمية شديدة على ملك فرنسا ، وعلى شقيقه فيليب الذى دخل فلورنسا بدعوى اعادة الامن والنظام الى ربوعها ، ثم ما لبث أن فتك بأهلها وحرق دورها ومزارعها !

وكان دانتى ذا أنف مقوس وعينين غارقتين فى محجريهما ، وذقن بارزة ووجه تبدو عليه القوة والتفكير والمهابة . فكان أهل فيرونا اذ يرونه فى ثوبه الاحمر وهو يسير تحت أروقتها فى تؤدة ووقار ، يشيرون اليه ويتهامسون قائلين :

ـ انه لشاعر عظيم ، ولقد ظلمه أولئك الاوغاد الذين أتهموه بالخيانة الوطنية وحكموا عليه بأن يحرق حيا ، بعد أن يدفع غرامة فادحة !

وأيا ماكان الامر ، فقد أفاد برتولوميو ديللاسكالاحاكم فيرونا فائدة كبيرة من احتضانه دانتى ، اذ أخذ هذا يقرأ له المؤلفات ؛ ويدبج الخطب ، ويحرر الرسائل الموجهة الى العظماء والكبراء ، الى غير ذلك من الخدمات الجليلة

ولم يكن روميو مونتيكى يعلم الا الشىء القليل عن الاسباب التى دعت برتولوميو الى الاحتفال بهذا الشاعر العظيم فى قصره . على أنه كان اذا لقى دانتى فى الطريق ، لا يسعه الا أن يقف متأملا اياه فى اعجاب ؛ ويشعر شعورا قويا بأن فى هيئة هذا السعيد الغريب ؛ ولا سيما نظراته القوية النفاذة ما يؤكد أنه رجل عظيم .

روميو يقع في الغرام

كانت السيدة « روزالندا » امرأة بارعة الجمال شديدة الجاذبية ، ذات جبين بارز ، وعينين واسعتين في أهدابهما طول ملحوظ ، وأنف رقيق منسجم مع فمها الرقيق ، وقد أوتيت الى ذلك جسما من أجمل الأجسام وأكملها وأحفلها بالمفاتن مما يعجز عن وصفه الواصفون ٠

وكان جميع أهل الغني واليسار في فيرونا يعرفونها ، لأنها كثيرا ما كانت تستقبلهم في مسكنها الفخم الذى تقيم به ، وقل بين أهل المدينة شبابا وكهولا من لم يكن يتغنى بجمالها ويحلم بالوصول اليه

وكان روميو مونتيكي في عداد من سحرهم جمال روزالندا ، فصار دائم القلق والكآبة الى حد أقلق عليه صديقه مركوتشيو ، فأخذ يقول له ساخرا :

ـ ما هذا الذى أصابك أيها الصديق ؟ ٠ هل تسطو عليك في الليل ساحرة تمتص دمك ، فاذا أقبل النهار ظهرت آثار ذلك في جسمك ؟

وكان روميو يدفعه في عنف بذراعه ويقول له :

ـ ماذا تهمك الافكار التي تتردد في ذهني ؟ ٠ ألست حرا في أن أفكر كيفما أشاء ٠٠ انك لتهينني بهذا اهانة لا أقبلها !

وهنا يسارع مركوتشيو الى الاعتذار الى روميو مؤكدا له أنه لم يقصد مطلقا أن يهينه ، ثم يستطرد فيقول :

ـ ليس هناك مايدعو الى الانغماس في الحزن والكآبة ، ولاسيما أننا مازلنا في مستهل الشباب ولم نجاوز العشرين بعد ٠٠ هلم نذهب الى احدى الحانات لنشرب شيئا من الخمر ، وبذلك تذهب همومك ويصفو بالك

ولكن روميو كان يهز كتفيه ويقول : « لست أشعر بعطش ! » ٠ ثم يمضي في اطراقه وتفكيره الحزين !

وقال له مركوتشيو يوما وقد لاحظ عليه شدة ما يعانيه من قلق خفي :

ـ ان وراء كآبتك الشديدة الدائمة هذه لسرا تخفيه ٠ ومن الخير لك أن تطلعني على هذا السر ، أم أنت لا تثق في اخلاصي ومحبتي لك ؟!

ثم أخذ مركوتشيو يكرر هذا السؤال على مسامع روميو ، كلما

رآه في مثل تلك الحال • وأخيرا اعترف له روميو بعد طول تردد وتفكير بالسر الذى يقلقه ويحزنه الى ذلك الحد ، فقال له :

ـ انى أحب روزالندا •

وفغر مركوتشيو فاه دهشة ، ثم سأله :

ـ من تكون روزالندا هـــذه •• أتعني تلك الغانية اللعوب التى تستقبل الناس فى مسكنها ؟ •• انك لست فقـــيرا يا صديقى ، وفى استطاعتك ولا شك أن تحصل على أكثر من المال القليل الذى يفتح لك باب قلب هذه الغانية على مصراعيه !

وهنا ثار غضب روميو حتى ظن مركوتشيو أنه يوشك أن ينقض عليه ليدق عنقه • على أنه ما لبث أن هدأ قليلا وقال له :

ـ انك لكاذب ! •• ولن أسمح لك قط بأن تصـــور جمالها بهذه الصورة المزرية !

فقال مركوتشيو فى هدوء :

ـ لست أطعن فى جمال روزالندا ، ولكنى أرجو أن تفكر قليـــلا فى الأمر • أن روزالندا جميلة ما فى ذلك شك ، ولا شك أيضا فى أنها تعيش عيشة مترفة وتنفق ببذخ واسراف • فهل لك أن تخبرنى من أين تأتى بالمال الكثير الذى تنفقه ، فى حين أنهـا ليست زوجة لرجل غنى ، كما أنها ليست سليلة أسرة غنية ؛ وأبوها كما يعلم الجميع ليس أكثر من ملاح بسيط يعيش من زورق له فى نهر أديجى

ولم يجب روميو ، وبقى ينظر الى صديقه ساهما ذاهلا ، فعـــاد هذا يقول :

ـ أرأيت اذن ياصديقى أية علاقه بين جمال روزالندا ، وبين من يترددون الى مسكنها الفخم لزيارتها أفرادا وجماعات ؟ •• هل تحب أن أذكر لك أسماءهم ؟ !

وبقى روميو صامتا واجما ، لانه لم يجد ردا يستطيع به أن ينقض ما فى أقوال مركوتشيو من حقائق قاسية مريرة •

ثم واصل مركوتشيو كلامه فقال :

ـ ان لم تكن قد اقتنعت ، فأنا على استعداد لأن أدخلك مسكنها ، لانى أعرف واحدا ممن يكثرون التردد اليه • وسترى حينئذ بعينيك ان قليلا من المال كفيل بأن يفتح لصاحبه ذلك المسكن الذى تعتقد أنه مقدس

وتردد روميو أول الأمر ، ثم قبل واتفق مع مركوتشـــيو عـــلى موعد يزوران فيه مسكن روزالندا • ثم انجز مركوتشيو وعده ، ولم تمض أيام حتى صار روميو فى عداد زمرة النبلاء الفيرونيين الذين يجتمعـــون عند روزالندا كل مساء ويحتسون من كئوس الأنس والصفاء •

وكان الحياء يلجم لسانه فى بادىء الأمر • ثم بدأ يتخلص من ذلك

شيئا فشيئا على مر الأيام · وكان له من مركز أسرته ، ونضرة شبابه ، وملاحة وجهه وخفة روحه ما مكن له في ذلك المجلس وجعل له الصدارة بين من ينتظمهم من نبلاء وأدباء وفنانين !

وتعودت روزالندا أن تدعوه الى حفلاتها ، فكان أحيانا يلبي الدعوة مسرعا بادى الغبطة والابتهاج ، وكان أحيانا يتمنع متظاهرا بعدم الاكتراث لكي تزداد تحببا اليه !

ولم تكن روزالندا تجهل مدى افتتانه بها ، ومن هنا كانت تعمد الى اثارته بمداعبات تكاد تكون وعودا · فاذا اشتعلت ثورة عواطفه وحاول أن يدير دفة الحديث الى المصارحة والمكاشفة ، سارعت الى قطع حديثه وقالت له في جد وهدوء :

ـ الى هنا يحسن الوقوف أيها السيد النبيل !

وكان روميو ينكمش مطيعا ، ويعتبر تصرفها ذاك برهانا على طهارة روحها ونبل قلبها ، فيزداد اجلالا واكبارا لها ·

وكانت هي تزدهي كثيرا بأن ينظر اليها روميو هذه النظرة !

والواقع أن أكبر ما كان يدفع روزالندا الى ذلك أنها كانت تخشى أن تغضب القدماء من المعجبين بجمالها وفتنتها ان هي ذهبت في الاستجابة لرغبات روميو الى أكثر من هذا الحد · فتفقد بذلك موردا لا يعوض !

وكان روميو أحيانا لا يستطيع أن يكتم عن صديقه مركوتشيو سخطه على روزالندا واحتقاره غرامها بالأشياء المادية ، وميلها الى الابهام والغموض حينا ، والى ابراز عواطفها حينا آخر ، ثم يردف ذلك قائلا :

ـ مارأيك يامركوتشيو ؟ · ألا يحق لى اذن أن أعجل بانقاذها من ذلك الجو الخانق الذى يضطرها الى ذلك ؟ · انها ولا شك ستكون أجمل كثيرا حين تحب حبا طاهرا شريفا تعطيه كل قلبها !

وهنا كان مركوتشيو يضحك ويقول له :

ـ انك تضيع وقتك سدى !

ولكن روميو لم يكن يقتنع بهذا ، فيقول لمركوتشيو :

ـ كيف ؟ ·· أى قيمة للوقت بجانب أن ينقذ المرء نفسا ؟

بين روميو وتيبالدو

وتوجه روميو الى كنيسة سان زانون ، ليحضر القداس فيها كعادته وللاشتراك في الاحتفال الديني الذي يقام بعد ذلك

وكان أحد أبناء الامبراطور شارلمان ، قد أمر بانشاء هذه الكنيسة، ولكن بناءها لم يتم الا منذ خمسين عاما • وقد امتازت بكثرة التماثيل التى حفرها بعض المثالين الاتقياء على جدرانها المحجوبة • ولا يزال فيها حتى الآن تمثال السيد المسيح ، وصورة تمثل محكمة بيلاطوس النبطى يبدو فيها القضاة والجلادون رءوسهم غليظة وعيونهم بارزة مثل الضفادع، وفى الكنيسة كذلك صور الملائكة تبسط أجنحتها ، وصور بديعة تبرز قدرة الخالق وعظمته أو تمثل وحشية اعدام المسيح • وكثير من أجنحة الملائكة فى تلك الصور ، أقرب شبهـا الى أجنحة الخفافيش • ولكن ذلك لا يرجع الى قلة ايمان الفنانين الذين قاموا بتلك الأعمال ، بل هو يرجع الى قصور هؤلاء فى الفن

وبعد أن انتهى روميو من الصلاة غادر الكنيسة مع بقية من كانوا فيها من المصلين • وذهب الجميع لحضور احتفال دينى علنى كان رجال الدين قد قرروا ان يقيموه فى مساء ذلك اليوم •

وسار المصلون يحملون المصابيح والمشاعل والشموع فى شوارع فيرونا المظلمة التى لم يكن نور النهار يصل اليها الا من بين سقوف المنازل المتلاصقة • وكان رجال الدين يحملون صلبانا ومباخر وتماثيل من الخشب وأعـلاما وصناديق آثار القديسين • وكانت أصوات مرتلى الأناشـيد الدينية تختلط بأصوات المغنين ، وكانت جمـاعة من رجال الدين من أعمار ومذاهب مختلفة تحيط بالصور المقدسة المحمولة بالأيدى ، بينما حملة المباخر يمشون خلفها وهم يهزون مباخرهم ليتصاعد منها البخور

ووضع القوم على عربة طفلا عمره خمس سنوات ، ليمثل القديس يوحنا • وكان الطفل جميلا أشقر الشعر مجعده ، له عينـان كبيرتان سوداوان • فكانت الابتسامات وعبارات الاعجاب تنهال عليه من الجميع ولا سيما السيدات • وكان بعض الحاضرين والحاضرات لا يكتفون بذلك ويرسلون اليه قبلات فى الهواء !

ولما مرت العربة بالقرب من روميو ، وكان الزحام شديدا ، زلت قدمه واضطر الى أن يستند الى كتف شاب كان الى جواره حينذاك ، فصاح به هذا قائلا :

— ماذا دهاك يا فتى ؟ •• ألم يبق لساقيك قوة لحملك ؟

وابتسم روميو وأجابه قائلا :



بين روميو وتيبالدو

ـ لقد زلت قدمى فلم أستطع الا أن أستند على كتفك ، فاذا كانت هذه الحـــركة الطفيفة لم تتحملها كتفك فأنت أشد حاجة الى التقوية ولا شك !

وهنا ثار ذلك الشاب وقال لروميو :

ـ انتظر قليلا ، ولسوف أسمرك على الباب حتى لا تزعج أحـــدا من جيرانك بعد ذلك !

وكان صبر روميو قد نفد ، ولم يطق السكوت على هـــذه الاهانة فقال للشاب :

ـ اذا لم تكن نذلا فاقترب منى لأريك انى لو تعمــــدت أن أوقعك لاستطعت هذا بدفعة أعنف وأشد !

فهاج الشاب واستل خنجره ، وكذلك فعل روميو ، ولكن الذين كانوا حولهما سارعوا الى ابعـــاد كل منهما عن الآخر ، وحملوهما على أغماد خنجريهما ثم استطاع الشابان أن يتلاكما بالأيدى ، فسال الــدم من شفاههما ، واحمرت عيونهما من شدةالضرب • وصاحأحد الحاضرين :

ـ أين رجال الحرس ، ان احدهما سيقتل الآخر ان استمرا فى هذه الملاكمة !

وفى تلك اللحظة جاء رجال الحرس وفرقوا الشابين برماحهم ، ثم مد قائد الحرس رمحه بينهما ، وأمرهما بأن يكفا عن العراك ثم قال لهما بعد هنيهة :

ـ يجب أن أعرف اسم كل منكما لعرض الامر على القاضى •

فقال روميو فى زهو وهو يمسح بكمه الممزق أنفه وفمه :

ـ اسمى روميو مونتيكى

فلما ســـمع اسمه رئيس الحرس أسف كل الأسف لتدخله وتمنى أن لو بقى فى المعسكر دون أن يعرض نفسه لهذا الموقف المحرج !

ثم التفت الى الشاب الآخر وسأله :

ـ وأنت مااسمك أيها الفتى الشقى ؟

فأجاب الشاب فى مثل زهو روميو وفخاره :

ـ اسمى تيبالدو •• وأنا من آل كابلليتى !

ثم عاوده الغضب والاهتياج كأن اسم مونتيكى نفخ فيه نارا !

وعرف روميو فى تلك اللحظة فقط ذلك الشاب ، وتذكر أنه شاهده جالسا الى جانب زعيم آل كابلليتى يوم حاول السيد ديللا سكالا أن يصلح بين الاسرتين الشريفتين •

وعندئذ حضرت لحسن الحظ فصيلة أخرى من الشرطة فقـــال الرئيس :

ـ اصحبوا أنتم هذا النبيل كابلليتى حتى قصره بكل احترام • وأنا وهؤلاء نذهب مع السيد مونتيكى الى داره لنمنع عنه الأذى !

وذهب كل فريق من رجال الشرطة فى طريق وهم يحرسون المذنبين اللذين أصبحا فى حماية الشرطة منذ اتضح انهما من الاشراف !

الفصل الرابع

مولد غرام



رقصة وأغنية

وقف أحد الخدم حائرا في ساحة السوق العامة بمدينة فيرونا ، وكانت في يده ورقة طويلة بها كتابة يتفرس فيها ويقلب الورقة ظهرا لبطن ثم يعيدها كما كانت ، ويهز رأسه وكتفيه ويمط شفتيه في حركات مضحكة تدل على دهشته البالغة وقلقه الشديد

ومر روميو في تلك اللحظة بساحة السوق ومعه صديقه مركوتشيو فاسترعى انتباههما منظر ذلك الخادم ، ووقفا قريبا منه يتأملان حركاته ويتهامسان ويبتسمان

واقترب مركوتشيو من الخادم الحائر وسأله :

ـ ما الذى يقلقك ويحيرك ، هل فقدت شيئا هنا ؟

فتنهد الخادم ، ونظر اليه قائلا :

ـ لم أفقد شيئا بعد ، ولكن أكاد أفقد عقلي بسبب الاسماء المكتوبة في هذه الورقة ، اذ أنني فقير لم أتعلم القراءة والكتابة ، ومع هذا يجب أن أعرف كل اسم من هذه الأسماء المكتوبة لكي أدعو صاحبها الى الحفلة التي يقيمها سيدى عميد آل كابلليتي

وما سمع روميو اسم كابلليتي حتى أختفى البشر والمرح من وجهه فجأة ، وحل محلهما التبرم والضيق ، ثم قال لمركوتشيو :

ـ هلم نذهب بعيدا من هنا ، فلست أطيق الوقوف لحظة بعد الآن !

وأسرع مركوتشيو في قراءة الأسماء المكتوبة في الورقة على الخادم ، ثم ردها اليه ، فتناولها الخادم وهم بالانصراف قائلا :

ـ شكرا لك ياسيدى ، ان معرفة هذه العلامات المكتوبة لمهمة صعبة ، ولكن ذاكرتي قوية وقد حفظت الأسماء التي تلوتها على كلها ، وسأقوم بمهمتي خير قيام • وهذا كله بفضلك ، جزاك الله عني خيرا

واستأنف الشابان سيرهما بعد ان انصرف الخادم ، وبقيا هنيهة صامتين ، ثم مط روميو شفته السفلى دلالة على اشمئزازه وقال :

ـ السيد كابلليتي يقيم حفلة ؟! •• لماذا يا ترى ؟

وأخذ مركوتشيو يبسط لروميو ما وصل الى علمه عن الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق لاقامة تلك الحفلة ، وأفاض في الحديث عما ينتظر ان تتضمنه من غناء ورقص وطعام وشراب وألعاب

مسلية مختلفة ، ثم توقف عن السير وقال لروميو :

ـ لا شك أنهـــا ســـتكون حفلة لطيفة ، وشد ما كان يسرني ألا يفوتك الاستمتاع بما فيها ، ولكنك طبعا لا يمكن أن ترضى أن تكون بين حاضريها •

وهنا سأل روميو صديقه :

ـ وماذا يمنعني من أن أكون بينهم ؟

فحدجه مركوتشيو بنظرة من مؤخرة عينه وقال له :

ـ يمنعك من ذلك انك من آل مونتيكي ، وأنك لهذا لايمكن أن تدخل قصر آل كابلليتي الا شاهرا سيفك لقتال !

فأطرق روميو ، وبقي حينا صامتا يعبث بطرف بنانه بين أســـنانه ثم رفع رأسه فجأة وقال لمركوتشيو :

ـ أليس السيد مرتولوميو ديللا سكالا حاكم المدينة بين المدعوين ؟

فأومأ مركوتشيو برأسه موافقا وقال :

ـ نعم ، وقد قرأت اسمه في رأس القائمة التي كانت مع الخادم

فقال روميو : « اذن لن يمكن في حضوره ان يحاول أحد استعمال القوة أثناء تلك الحفلة ؟ »

ثم مضى يشرح له فكرة خطرت بباله ، هي أن يذهب متنكرا الى قصر السيد كابلليتي يوم الحفلة وبذلك يتاح له أن يشـــهدها ويستمتع بكل ما تحويه دون أن يعلم بذلك أحد من آل كابلليتي أو آل مونتيكي •

ولم يوافق مركوتشيو على هذه الفكرة ، وأخذ يبين لروميو ما في تنفيذها من مغامرة محفوفة بالأخطار • ولكن تحذيره هذا لم يزدروميو الا استمساكا بتنفيذ فكرته • ولما افترقا بعد حين • كان روميو قـــد وطد عزمه على حضور حفلة السيد كابلليتي ، ثم ليكن بعد ذلك مايكون

* * *

أقيمت حفلة السيد كابلليتي في شهر يوليو سنة ١٣٠٣ ، وقد بلغت حرارة الجو اشدها في تلك الليلة ، وزاد في شدة الحـــرارة ازدحام القصر بالمدعوين والمدعوات ، وبأفراد فرق الموسيقى والغنـــاء والشعراء والمحدثين والبهلوانات والحـــواة ومن اليهم ممن اســـتقدموا اليها للتسلية والترفيه • وهذا عدا عشرات الخدم والطهاة والحراس، وعدا الحرارة المنبعثة من عديد المشاعل والشموع ، ومن المطابخ والأفران

ولم تكن بدانة السيدة كابلليتي أشد ما يضايقها في تلك الليلة ، فقد كان عليها أن ترتدي ثيابا من المخمل المزركش الثقيل ! •• وكان عليها فوق ذلك ان تتجاهل ما يتصـــبب من عرقها مدرارا لكي تمضي ساعات قبل موعد الحفلة في الطواف بأنحاء القصر ومطابخه للاشراف على اعـــداد الموائد وألوان الطعام والشراب وترتيب مقاعد المدعوين

والمدعوات وتنظيم حلبة الرقص · دون ان تنقطع لحظة واحدة طول هذه الساعات عن اصدار التعليمات وأبداء الملاحظات والتوجيهات !

وقد بذلت جولييت كل ما فى وسعها لمعاونة أمها على أداء هـــذه المهام الجسام ، ولكنها كان لهـــا من شبابها ورشاقتها ومرحهـــا وتسامحها مع الخدم ما هون عليها الأمر الى حد كبير ·

أما السيد كابلليتى ، فقد حصر مهمته فى اصدار التعليمات لنافخى الابواق والحراس وحاملى السلاح ، وفى الاشراف على اعداد المقـــاعد الوثيرة الممتازة للسيد برتولوميو ديللا سكالا حاكم المدينة وبقية النبلاء والنبيلات !

وما آذنت شمس ذلك اليوم بالغروب حتى كان كل شىء قد أعد على مايرام لاســـتقبال المدعوين والمدعوات · وبدءوا يفدون زرافات ووحدانا ، وقد ارتدى النبلاء أثمن الثياب وأثقلها ، وزاد فى ثقل ثياب النبيلات ما تحلين به من مختلف أنواع الجواهر واللآلىء والمصوغات !

وبالغ أهل القصر فى حسن استقبال ضيوفهم والترحيب بهم ، وكان بينهم كثيرون وكثيرات جاءوا الى الحفلة متنكرين طبقـــا للتقاليد الايطالية فى ذلك العصر · ولم يمض الا قليل حتى تكامل عددهم ، واســـتقروا فى مقاعدهم ، فأخذ الخدم يطوفون عليهم بأكواب الخمر ، وأخـــذوا هم يشربون ويتسامرون ويتـــبادلون الأحاديث والنوادر والفكاهات ، وفى خلال ذلك يلتهمون ماحفلت به الموائد من ألوان الطعام !

وعزفت الموسيقى بعد ساعة ايذانا بحلول موعد الرقص ، فانتقل الضيوف الى القاعة الكبرى المخصصة لذلك ، وجلسوا صفوفا على المقاعد الوثيرة التى أعدت هناك على هيئة دائرة أخلى وسطها مكان فسيح للراقصين والراقصات ·

ثم بدأ الرقص على نغمات الموسيقى ، وكان كل اثنين يرقصـــان معا ، وكلهم يدورون داخل تلك الدائرة ، بينما الجالسون يرقبونهم فرحين مغتبطين ·

وهناك خلف أحد الاعمدة الضخمة التى أقيمت عليها جوانب القاعة ، قبع اثنان من المدعوين وأخذا يتهامسان من حين الى حين وهما يرقبان الرقص · وكان أحدهما متنكرا فى زى سيدة ، وقد بدا انه ضاق ذرعا بشدة الحر ، وبالقناع الثقيل الذى يغطى رأسه ووجهه ولا يبين منه الا عيناه · ثم همس فى أذن زميله قائلا :

ــ أشعر بأننى سأختنق من شدة الحر !

ثم مد يده الى قناعه الثقيل فأزاحه عن وجهه قليلا ، ولكن زميله سارع الى منعه من ذلك قائلا :

ــ حذار ياروميو ! ·· اياك ان تكشـــف عن وجهك ، والا ألقيت بنفسك الى التهلكة بهذه الحماقة الشنيعة !

ولكن روميو ، لم يعبأ بتحذير صديقه مركوتشيو ، وسرعان ماكشف عن وجهه ذلك القناع الذى كان يخفيه ، ثم تنهد وقال :

ـ قلت لك ان شدة الحر كادت تزهق روحى !

وعض مركوتشيو شفتيه غيظا وحنقا ، ثم تلفت حواليه ، وقال له :

ـ يجب أن تغادر هذا المكان فورا .. انهم سيعرفون وجهك ولا شك ، وأنت تعرف مالابد أن يترتب على ذلك !

ولم يزد روميو على أن ابتسم وهز كتفيه ساخرا فى عناد ؛ ثم راح يتابع بنظراته الراقصين والراقصات ووجهه يفيض بدلائل عدم الاكتراث بل يفيض بالارتياح والسرور !

ولم يلحظ الرجال وجه روميو أول الأمر ، ولكن النساء سرعان ما اتجهت اليه أنظارهن

وكان بين الرقصات التى جرت فى الحلقة بعد ذلك رقصة ريفية تقليدية تنتهى عادة بأن يحيط بعض المشتركين والمشتركات فيها بأحد الجالسين ثم يجروه الى الرقص معهم ويرغموه على ذلك ارغاما ان لم يستجب لهم . فانتهزت احدى السيدات الراقصات هذه الفرصة وانقضت على روميو فى مجلسه وراحت تجذب ثوبه داعية أياه الى مراقصتها . فراح هو يحاول أن يفلت من يدها ، وبذل مركوتشيو كل ما استطاع من جهد وحيلة لمعاونته على التخلص من هذا المأزق الذى أوقع نفسه فيه . ولكن السيدة تشبثت بأطراف ثوبه ، ولم تتركه الا بعد جهد جهيد سقط خلاله قناعه عن رأسه كما سقط الثوب النسائى الذى تنكر فيه عن كتفه وصدره فظهر تحته ثوبه الحقيقى .

ولم يشك هو ولا مركوتشيو فى أن أمرهما قد انكشف . على أن سحب الدخان الكثيف المنبعث من المشاعل الموقدة ، وانشغال أكثر الرجال الحاضرين بمتابعة الرقص والموسيقى ، فضلا عن افراطهم جميعا فى الشراب . كل ذلك كان مما سهل لروميو وصاحبه الافلات من يد الراقصة الممسكة بهما ، والاختفاء بعيدا من متناولها فى زحمة الحاضرين والحاضرات !

ولما انتهت تلك الرقصة الريفية ، حانت من تيبالدو ابن عم جوليت التفاتة الى الركن الجديد الذى انزوى فيه روميو ، فعرفه بوجهه ، وأخذه الحنق والغيظ لجرأته ؛ فغادر مكانه فى الحلقة متجها الى حيث كان يجلس عمه السيد كابلليتى ، حتى اذا بلغه بعد أن دفع كثيرا ممن كانوا فى طريقه من المدعوين والمدعوات قال له وهو يشير الى روميو عابسا مقطب الجبين :

ـ انظر يا عماه .. ان عدوا لدودا من أعدائنا بلغت به القحة والجرأة أن اقتحم مقرنا . ان روميو مونتيكى هنا فى هذه الحفله . ولأمر ما جاء الى هنا . ولابد قبل طرده من أن نلقى عليه درسا لا ينساه ليكون عبرة لسواه !

والتفت السيد كابلليتى الى الجهة التى أشار اليها تيبالدو ، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة وأومأ بيده داعيا تيبالدو الى الهدوء قائلا له :

هون عليك يا عزيزى ، ان اليوم يوم فرح وبهجة لا يوم قتال ونزال ٠ ولعل خطأ وقع فى توجيه الدعوات الى الحفلة ٠ وأياماكان الامر فليس هناك ما يدعو الى تعكير صفونا وأنسنا ، ولينزل على الرحب والسعة كل من دخل هذا القصر وان كان من آل مونتيكى !

وكان الرقص قد استؤنف خلال ذلك ، وظهرت على الحلقة جولييت ممسكة يد روميو استعدادا لاشتراكهما فى الرقص ، فاشتد غيظ تيبالدو ورفع صوته قائلا لعمه :

ـ هذا لا يمكن ان يكون ، هذا عار ! ٠٠ أن روميو مونتيكى يراقص جولييت !

فنظر السيد كابلليتى الى الحلقة هنيهة ، ثم التفت الى تيبالدو وربت كتفه بيده داعيا اياه مرة أخرى الى الهدوء ، وقال له فى لهجة حازمة :

ـ يحسن أن تملأ رئتيك من هواء الليل الطلق النقى خارج القاعة، ان شدة الحرارة هنا تهيج الأعصاب أكثر مما ينبغى ٠ ولا تنس انى فى سن لا أحتاج فيها الى من يبصرنى بواجبى !

وجمد تيبالدو فى مكانه هنيهة ، وهو ينقل نظراته الحانقة بين عمه وبين حلقة الرقص ، ثم مط شفتيه مشمئزا مقطب الجبين ، وغادر القاعة صامتا ويداه معقودتان على ظهره وما لبث أن اختفى عن الأنظار ٠

* * *

وقفت جولييت كابلليتى وحدها وسط حلقة الرقص لتلقى أغنية تقليدية تسلى بها المدعوين والمدعوات على أنغام الموسيقى ، واستهلت أغنيتها قائلة :

ـ أنا وردة فى الظل وحدى ٠٠٠

وارتفعت أصوات بعض الحاضرين مرددة على أنغام الموسيقى :

ـ وردة ناضرة جميلة لطيفة !

فاستطردت جولييت تنشد بصوت عذب :

ـ لكننى مع هذا لم أعرف الحب بعد !

وهنا انبرى من بين الحاضرين فتى من أبناء آل كابلليتى ، وأخذ مكانه وسط الحلقة أمام جولييت ، ومضى فى الأغنية نفسها منشدا :

ـ اذن أقطف أنا هذه الوردة ؟

ثم انطلق يرقص على أنغام الموسيقى ، وكلما اقترب من جولييت نفرت مبتعدة منه فى رشاقة وخفة ودلال ٠ ثم يعودان الى الالتقاء وجها لوجه وسط الحلقة ، وينشدان معا بعض مقاطع الأغنية الغرامية الراقصة

التقليدية ، بينما أصوات الآلات الموسيقية تزداد ارتفاعا ، وتمتزج بها أصوات الحاضرين وهم يرددون تلك المقاطع ويصفقون !

وكان روميو واقفا يتأمل هذا المشهد وعيناه لا تفارقان جولييت ، وتتابعانها في أغنيتها ورقصتها مع ذلك الفتى الذى بدا له ثقيل الظل منتفخ الاوداج لا يعرف كيف يتلطف ويترفق وهو يمسك يد الفتاة الجميلة اللطيفة المرحة بيده الغليظة •

ثم انتهت الأغنية ، وامتلأت الحلبة مرة أخرى بالراقصين والراقصات ، فأخذ روميو يدور معهم فيها ، لكنه لم يكن معنيا باظهار اجادته للرقص ، اذ كانت عنايته كلها موجهة الى متابعة جولييت تلك الفتاة الظريفة التى بهرته ملابسها الزاهية البراقة ، ويداها النحيفتان وساقاها الدقيقتان ، وقدها المعتدل الرشيق ، ووجهها المشرق بارق الابتسامات وعذب النظرات •

وحدث غير مرة ان مرت بقربه في دورانها خلال الرقص ، فكانت تتريث عنده قليلا وتنظر اليه مبتسمة فتحدثه نفسه بأن يمسك يدها ولا يدعهاترقص مع غيره ، لكنه كان فى تلك اللحظة ينسى كل شىء الا التحديقفى وجهها الى أن تبتعد ، فيبقى مكانه حائرا قلقا حتى تعود !

وفى نهاية هذه الرقصة ، بدأ الراقصون والراقصات يعودون الى مجالسهم حول الحلقة تاركين جولييت لتنشد أغنية الختام • ولم يفطن روميو الى ذلك ، فبقى وحده معها فى الحلقة آخر الأمر ، ثم رآها تقف وسطها ناصبة قامتها كما فعلت أول مرة ، وبدأت أغنيتها التقليدية الجديدة ، وقد ضمت يديها ورفعتهما مع رأسها الى أعلى كأنها تصلى ، وانطلق صوتها العذب الحنون يلعلع فى القاعة وهى تنشد على أنغام الموسيقى :

ـ أنا أسيرة فى الغاب ، أين من يستطيع نجدتى ؟!

وأخذت تردد هذا المقطع مرات ، وعينا روميو لا تفارقان شفتيها ثم بدأ بعض الحاضرين يندفعون الى الحلقة ، ويدورون حول جولييت راقصين ، وكل منهم يمد اليها يده داعيا الى الرقص ؛ بينما هىتتجاهل أيديهم الممتدة ، وتمضى فى أغنيتها :

ـ أنا أسيرة فى الغاب ••• أين من يستطيع نجدتى ؟!

ووجد روميو نفسه يندفع نحوها كأنما يجذبه اليها مغناطيس ، ثم ما كاد يمد اليها يده حتى أسلمته يدها مبتسمة ، وانطلقا يرقصان معا فى رشاقة ومرح وانسجام ؛ بينما القاعة تدوى بتصفيق الاعجاب والاستحسان من جميع الحاضرين والحاضرات •

وانحنت جولييت وأطبقت جفنيها حياء وخفرا وهى ترد تحيات المعجبين والمعجبات ؛ وحينما رفعت رأسها وفتحتعينيها بدت فىوجهها الدهشة ، اذ كان الفتى الجميل اللطيف الذى شاركها رقصتها الأخيرة قد اختفى من حلقة الرقص ، وغادر القاعة ؛ بل غادر القصر كله ، منتهزا فرصة الضجة التى ختمت بها تلك الرقصة !

حب حتى الموت

بقى مركوتشيو منتظرا على أحر من الجمر حتى انتهى روميو من الرقصة الأخيرة مع جولييت ، فلما رجع اليه هذا متسللا فى ضجة التحيات التى انطلقت بها أكف الحاضرين وحناجرهم تصفيقا وهتافا ، ابتدره قائلا :

ـ حسنا ! ٠٠ فلنمض الآن وحسبك ما كان !

فأومأ روميو موافقـــا ، وغادرا القاعة والقصر مسرعين ٠ وما كادا يجتازان الباب الخـــارجى حتى تنفس كل منهما الصـــعداء ، وقال مركوتشيو :

ـ ما أحسن هواء الليل ! ان الجو هناك خانق حقا !

ولم يسمع روميو عبارة صديقه ، اذ كان ذهنه ما برح مشـــغولا الفتاة الحسناء اللطيفة ذات الثوب الأبيض ، فقال له :

ـ أرأيتها ؟ ٠٠ من تكون ياترى ؟٠٠ ألا تعرف اسمها ؟٠٠ ماأبدعها ياصديقى وما أروع حسنها وخفة روحها ! ٠٠ انها ولا شك ليست من أسرتهم ؟!

ووقف روميو على أثر ذلك واضعا يده على كتف صديقه وأخذ ينظر اليه متلهفا لســـماع الجواب ٠ فابتسم مركوتشيو وأمسك ذراع روميو وجذبه ليواصل المشى والابتعاد من القصر قائلا :

ـ امض أيها الحالم بالحب ٠٠ امض ! ٠٠ ان الذنب ليس ذنبك ، ولكنه ذنب روزالندا !٠٠ فلو أنها تعطفت عليك وساعفتك باخماد ثورة أعصابك ، ما كان هذا حالك الآن

ولم يفهم روميو شيئا من عبارة مركوتشيو هـــذه أيضا ٠ وعاود سؤاله عن الفتاة ذات الثوب الأبيض !

فابتسم مركوتشيو مرة أخرى وقال له :

ـ عجيب منك أنك لم تعرفها ، لكنك معذور يا صديقى فان حبك لروزالندا شغلك عن كل ما عداه خلال العامين الأخيرين !

فقال له روميو :

ـ أنت تعرفها اذن ٠٠ ما اسمها يا صديقى ؟

فقال : «اسمها جولييت ٠٠ جولييت كابلليتى !»

فتوقف روميو وأمسك ذراع مركوتشيو وقال متعجبا :

ـ جولييت كابلليتي ؟!٠ كيف يكون هـــذا ؟٠٠ أهي تلك الصبية الصغيرة التي رأيناها في النهر تستحم وتلعب ؟!

فقال مركوتشيو :

ـ نعم ٠٠ انها هي نفسها تلك الصبيه ، لقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، واكتملت رشاقتها وحلاوتها وجاذبيتها ٠ وهي اليوم أجمـل فتيات لومبارديا على الاطلاق !

وشعر روميو بان قلبه يخفق بشـــدة ، ورفـــع عينيه الى السماء الصافية الأديم ، وبدا كأنما يتابع كواكبها المتألقة ، بينما الأصـــوات المنبعثة من قصر آل كابلليتي تنساب الى أذنيه ، وأضواء المشاعل العديدة حول القصر تشق حجاب الظلام وتنير معالم الطريق ٠

ثم تنهد وقال :

ـ هي اذن جولييت ؟٠٠ لكن ٠٠ أواثق أنت من ذلك يامركوتشيو؟ انني لا أستطيع أن أصدق هذا !٠٠ ان العوسج لا يمكن أن ينبت وردا ! كيف تصدق أنت أن هذه الفتاة الحلوة المرحة الظريفة ابنة ذينك الجلفين الغليظين ؟!

فضحك مركوتشيو وقال :

ـ ان الحب يوحي اليــك يا صديقي بنظريات عجيبة في شـــئون الطبيعة !٠ ولكن ما قلته لك هو الحق الذي لاشك فيه ٠ فهذه الفتاة التي سعدت بنظراتها وبسماتها وشدوها ورقصهـــا هي جولييت ابنة السيد كابلليتي صاحب القصر الذي كنا فيه !

وبدا روميو زائغ البصر شارد اللب ، ثم التفت الى مركوتشيو فجأة وقال له :

ـ مركوتشيو ٠٠ هيا بنا ، لنعد الى القصر ٠٠ ان الحفلة ما زالت قائمة ، ولا بد لي من أن أعود اليها ٠٠ أحب أن أراها ثانية ؟

ثم استدار على أثر ذلك وجذب ذراع مركوتشيو ليعود معه الى القصر، ولكن هذا أمسكه بقوة وهز كتفيه قائلا :

ـ كلا !٠ كلا ياروميو ٠ ما كل مرة تسلم الجرة ، وعليك أن تحمد الله على أن انتهت مغامرتك الجريئة الخطيرة بسلام ٠ ثم لا تنس أن القوم قد بدأت نشوة السكر والغناء والرقص تزايلهم !

وحاول روميو أن يخلص ذراعه من قبضة صديقه وهو يقول :

ـ دعني !٠٠ أريد أن أرآها ٠٠ أريد أن أرى جولييت !

ولكن مركوتشيو تشبث بذراعه ، وأخذ يهمس في أذنه قائلا :

ـ اذا كنت راغبا حقا في أن تراها ، فخير لك ألا تعـــود الى القصر

الآن ، انك من آل مونتيكى ، وهى من آل كابلليتى • فتـــلاقيكما هكذا يستحيل أن ترضى عنه الاسرتان وبينهما ما تعــــلم من عداوة وبغضاء • وفى استطاعتك أن تكون أكثر حكمة وعقـــــلا ، فاصبر حتى ترسم خطة محكمة تكفل تلاقيكما خفية فى غفلة من الرقباء • وفى استطاعتك بعـــد ذلك أن تلقاها كلما شئت وشاءت •• هـذا اذا كنت حقا قد أحببتها ، ولم يكن ما تشعر به الآن لا يعدو أن يكون اعجـــابا عارضا لا يلبث أن يهدأ أو تخمد جذوته و •••

فقطع روميو كلامه وقال :

ــ كلا !•• كلا•• أنا أحبها من كل قلبى !•• أحبها كل الحب •• وسأحبها حتى الموت !

أحلام الحب

بقيت جولييت ساهرة تشارك فى مباهج الحفلة حتى دقت ساعات الكنائس فى المدينة مؤذنة بانتصاف الليل ، فقالت لها أمها :

ـ لقد سهرت أكثر مما ينبغى لك يا جولييت ، ويجب أن ترتاحى الآن !

وللمرة الأولى ، لم تقتنع الفتاة بأن أمها على حق ! ·· صحيح أنها بذلت جهدا كبيرا فى الحفلة وفى الاستعداد لها قبل ذلك ، لكنها لم تكن تشعر بأى تعب ، بل كانت على عكس ذلك تشعر برغبة قوية فى أن تبقى فى الحفلة ، وأن تعاود الغناء والرقص !·· على أنها كانت قد تعودت الطاعة والامتثال ، فلم يسعها الا أن نهضت متثاقلة ، وغادرت القاعة المزدحمة فى خطى وئيدة ، وهى ترسل نظرات فاحصة على وجوه المدعوين والمدعوات ، كأنما تبحث بينها عن وجه بعينه !

ولما صعدت الى غرفتها ، واستبدلت بثياب الحفلة قميصها الفضفاض الطويل ، لم تشأ أن تذهب الى فراشها مباشرة ، بل اتجهت الى الشرفة واستندت بذراعيها الى حاجزها ، ثم راحت تتطلع الى الفضاء الفسيح الممتد أمام عينيها ، وهناك فى أقصاه نهر الاديج ، لكنه لا يكاد يبين فى ضوء القمر والنجوم

وأنعشتها النسمات الرقيقة التى أخذت تداعب شعرها ووجهها · وكانت الليلة من أحسن ليالى الصيف فى فيرونا · وأطربتها الموسيقى المنبعثة من نقيق الضفادع فى الحقول التى غمرها الماء ، وصرير الجنادب هنا وهناك فى أطراف المدينة ، ومن حين الى حين كان سمعها يتبين خلال ذلك أصوات بعض الصيادين والملاحين السابحة بهم زوارقهم فى النهر البعيد ·· وأحيانا تخفت كل هذه الاصوات ، وتهدأ ضجة من لا يزالون فى الحفلة ،فيسود السكون التام · ويخيل اليها ان الكون كله قد استغرق فى سبات عميق !

وأطلقت جولييت لفكرها العنان ، وعاودتها نشوة السعادة التى شعرت بها تغمرها فى الحفلة ، وخيل اليها أن صدرها قد اتسع ، وأن قلبها يهتز طربا بين ضلوعها ، وأخذت المشاهد البهيجة السعيدة التى استمتعت بها تكر راجعة على لوحة خيالها ، وهى مطبقة جفنيها ، مستندة الى حاجز الشرفة بذراعيها · ومن بين هذه المشاهد ما كان يمر سريعا ولا يلبث أن يختفى · ومن بينها ما كان يستأنى ويتمهل ، فتستغرق بكل شعورها فى استجلاء دقائقه وخوافيه !

وقد ذكرت أباها ، ذلك الشيخ المهيب الذى أحبته بكل قلبها ، وكان له الفضل الأول فى السماح لها بأن تشهد لأول مرة ذلك الحفل الساهر الراقص البهيج !

وذكرت والدتها التى افتتنت فى تجميلها وتزيينها لتبدو فى الحفلة مكتملة الروعة والبهاء . كما ذكرت أوزيبيا مرضعها الظريفة الحنون التى سهرت ليلتين متتاليتين لتتم تطريز الثوب الأبيض الناصع الذى اضفى عليها جمالا وجلالا طالعت آثارهما فى كثير من نظرات المعجبين والمعجبات!

وتتابعت على لوحة خيالها صور كثـــيرين وكثيرات من المدعوين والمدعوات ، فى ثيـــابهم الفخمة الأنيقة ، وزينتهم الباهرة بما اشتملت عليه من جواهر نادرة ثمينة لا تقدر بمال

واستقر خيالها أخيرا عند صورة حلقة الرقص ، فأخذت تستعرض الراقصين والراقصات ، وتتريث عند كل حركة رشيقة ، أو نغمة عذبة ، أو كلمة لطيفة

وما لبث اهتمامها كله أن تركز فى صورة ذلك الفتى النبـيل ذى القامة الفارعة الممشوقة ، والوجه الباسم الصبوح ، والنظرات الهـادئة الصادقة ، والبسمات الخفيفة اللطيفة ، والرقصات البـارعة ، الرائعة برغم ما لاحظته عليه أحيانا من قلق واضطراب !

وهنا ساءلت نفسها : ترى من يكون ذلك الفتى النبـيل الجميل ، ولماذا اختفى فجأة عقب الرقصة الأخيرة ؟

ومضت تتذكر قسمات وجهه ، وتحصى نظراته اليها وابتساماته ، وثيابه قطعة قطعة ، وكل حركاته وسكناته منذ وقعت عليه عيناها الى أن غادر الحفلة متسللا قبل أن تعرف من يكون !

وحلق بها خيالها فى جو المستقبل المجهول ، فتصورت ذلك الفتى النبيل الجميل هو نفسه الضالة المنشودة لوالديها ، لكى يختاراه شريكا لحياتها ، وحافظا لما سيئول اليها من ثروة الأسرة ولقبها ومجدها •

وفتحت عينيها على هذا الحلم الجميل ، فرفعت ذراعيها عن الشرفة ، وسرحت طرفها فى النجوم المتألقة على صفحة السماء ، وملأت رئتيها من هواء الليل البليل • ثم أطلقت من صدرها زفرة طويلة ، وقالت تحدث نفسها :

حبذا لو صح هذا الحلم ، ان فيرونا كلها ليس فيها من يستطيع أن يدانى ذلك الفتى فى وسامته ورقته وظرفه • وما أسعد قلبى اذا قدر له أن يتحد مع قلبه !

وتولتها رعدة خفيفة ، وتدحرجت على خدها دمعة مالبثت أن أعقبتها دموع لم تعرف أهى دموع الاسف على فراق ذلك الفتى النبيل الجميل ، أم هى دموع الفرح والسعادة والأمل فى تحقق ذلك الحلم !

وغادرت الشرفة أخيراً ، وذهبت الى فراشها فالقت بنفسها عليه ،

وأطبقت جفنيها من جديد ‥ وراحت تنشد النوم لعلها أن تجتمع بفتاها فى الاحلام · ولكن طيفه لم ينتظر حتى تنام ، بل سرعان ما عادت صورته فارتسمت على لوحة مخيلتها ، فلم تتمالك نفسها من الابتسام !

وزاد فى ابتسامتها ، أن تذكرت فى هذه اللحظة أن جميع المدعوين الى الحفلة ، لا بد أن يكونوا من أصدقاء الأسرة وأعوانها ، فلم يكن اذن بينهم غــــير هؤلاء ، اللهم الا حاكم المدينة وبعض تابعيه ، وليس فتاها أحدهم على أى حال · وعلى هذا ليس بعيدا أن يتحقق حلمها ، وأن يكون ذلك الفتى هو من ينشده لها أبواها الحبيبان لترشف معه كئوس السعادة والصفاء

وأخذها النوم وهى ما زالت تبتسم غبطة بهذا الخاطر السعيد !

شعور متبادل

عاد روميو الى قصر أبيه ، وأوى الى فراشه وما زالت صورة جولييت تملأ أقطار ذهنه ، ولم تطــــل ليلته لكنه لم ينم ، وبقى طيفها الجميل ، وصوتها ذو الرنين المنعش ، ورقصها المرح المحبب الرتيب ، الشـــــغل الشاغل لقلبه وعقله حتى الصباح

على أنه نهض خفيفا نشيطا ، واســــتهل يومه الجديد بالتفكير فى جولييت ، ورسم الخطط للقائها فى أقرب وقت مستطاع

وأعانه صديقه مركوتشيو بقدر ما استطاع ، مخلصا له النصح ، حريصا على سعادته وسلامته ، ولكن الخطط التى رسماها لم تنل رضاء روميو ، وأمضى الاسبوعين التاليين وهــو ما زال يفكر ويدبر ولكن دون جدوى

وانحصر اختياره أخيرا فى وسيلتين اثنتين : احداهمـا أن يتسلق اليها أسوار قصر أبيها أو حصنه الحصين ويرشو الحراس والخـدم اذا اقتضى الأمر ذلك • والأخرى أن يأتى البيوت من أبوابها ويلتزم جانب الصراحة اللائقة بكرامته وكرامة أسرتيهما فيطلب الزواج بها !

وآثر أن يبدأ بالوسيلة الأولى ، وان كانت أخطر وأصعب ، فقــد خشى أن يقوم العداء المستحكم بين أسرتيهما سدا فى وجهه من أول الأمر!

وبقى حتى صباح اليوم التالى وهو على هذا الرأى ، وكان اليوم يوم أحد فارتدى ثيابه وغادر القصر مبكرا ، ليصلى فى الكنيسة كما اعتاد

على أنه لم يذهب الى كنيسة « الثالوث المقدس » التى يتبعها ، بل توجه تلقاء (كنيسة الرسل) المجاورة لقصر آل كابلليتى !

ودخل الكنيسة دون أن يعرفه أحد ، فقد كان فى ثياب بسيطة ، وأكثر وجهه تغطيه قبعته ، ثم اتخذ مجلسه فى ركن قصى بجانب عمـود ضخم وأخذ يسرح بصره فى وجوه الحاضرين والحاضرات عسى أن تكون بينهم

ولكنه لم يجدها ، وقد تحقق ذلك برغم قلة الضوء فى الكنيسة ، اذ كانت أشعة الشمس لا تدخلها الا بمقدار لمـا يغطى زجاج النوافذ من صور ملونة للقديسين بين حمراء وصفراء وزرقاء • وبرغم كثرة الأعمدة الضخمة ، والشمعدانات الهائلة التى تحيط بالمذبـــح القائم فى أقصى المكان ، وترسل حوله أضواءها الحمراء والصفراء

وتعلقت عيناه بالباب ، ولكن أحدا لم يدخل منه ، فحدثته نفسه بأنها حضرت مبكرة وانصرفت قبل حضوره •

ثم تذكر أن قصر أبيها به كنيسة صغيرة ولعلها صلت فيها

وبقى روميو هنالك وقتا غـــير قصير نهبا لمثـــل هذه الوساوس والافكار ، ثم أفاق من حيرته وقلقه على سماع أصـــوات المرتلين ، وبدأ الكهنة يتناوبون الصلاة والمرتلون يرددونها وراءهم ، بينما أنغام الأرغن ترن فى جوانب الكنيسة وكأنها عاصفة تزأر من بعيد ، وسحائب الدخان المتصاعد من المباخر تنعقد فى الجو فتشيع فيه رائحـــة عبقة تزيد فى خشوع المصلين

ولاح له فى هذه اللحظة أنه اقترف اثما كبيرا وخالف وصايا الله ، لأن بحثه عن تلك الفتاة ، وان كان يحبها حبا طاهرا ، لم يكن ينبغى له أن يقوم به الا باذن من والديه

وصادف أن كان أحد الكهنة فى تلك اللحظة يتلو صـــلاة تنهى عن الخداع والاستماع لوحي الشيطان الذى يوقع الناس فى فخاخ الخطيئة من حيث لا يشعرون ، فاقشعر جسمه وساوره النـــدم على أنه لم يفطن الى ما فى عمله من مجافاة لتعاليم الدين والاحترام الواجب للكنيسة •

وفيما هـــو كذلك ، حانت منه التفاتة ، فاذا به يفغر فاه ، ويكاد ينهض معلنا عن شدة غبطته • فهناك على قيـــد خطوات من الركن الذى جلس فيه ، كانت جولييت جالسة تستمع للصلاة مطرقة فى خشـــوع وسكون !

وحينما رفعت رأسها بعد قليل ، تلاقت نظراتهما ، فكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه ، ولحظ رعشة خفيفة اعترتها حينذاك ، كما لحظ أن أحد حاجبيها ارتفع قليلا ، وأن خديها تضرجا بحمرة محببة ، ولمعت على شفتيها ابتسامة عذبة تنبىء بالرضا والابتهاج

وهكذا بدت جولييت فى عينيه أجمل وأروع مما رآها من قبل !

ولم يحول بصره عنها منذ تلك اللحظة ، أما هى فعادت الى اطراقها وخشوعها ، ولكن قلبه حدثه مؤكدا أنها عرفته كما عرفها ، وأنها تفكر فيه كما يفكر فيها • وجاء الدليل العملى على صـــحة ذلك فى الدقائق التالية ، اذ أنها حاولت مرتين أن تختلس النظر اليه ، وكان واضـحا من ردها طرفها فى خفر وحياء ، ومن قلقهـــا فى مكانها ، عدا ما طالعه فى عينيها •• كان واضحا من هذا كله أنها تبادله شعوره ، وانها لا تقل عنه فرحا بهذا اللقاء

وانتهت الصلاة أخيرا ، فنهض روميو واتخذ طريقه الى باب الخروج فى خفة ونشاط

في سباق الزوارق

لم يكن لروميو من هم بعد ذلك اللقاء غير المنتظر في الكنيسة الا أن يفكر فى أمر جولييت ، وفى اتخاذ الوسائل التى ترفع قدره عندها ، وتقوى فى فؤادها ذلك الشعور المتبادل الذى رآه فى نظراتها اليه

وكان شباب المدينة قد أزمعوا في تلك السنة ، اقامة مباريات رياضية عامة فيما بينهم ، لنيل البطولة فى الفروسية والمبارزة وغيرهما. على أن يكون بعضها فى البر ، وبعضها في زوارق خاصة فى نهر الاديج . فاعتزم روميو أن يشترك فى أكثر هذه المباريات ، على أن تشهدها جولييت فيمتع عينيه بمرآها ، وترى بعينيها شجاعته وبراعته وتفوقه على الاقران فى حومات النزال والطعان !

وأدلى بذلك الى صديقه الوفى مركوتشيو ، فاستحسن فكرته ، وقال له :

ـ انه لا شك فى أنها تبادلك الحب ، ولكنّ مشاهدتها انتصاراتك فى المباريات القادمة ستجعل لك فى قلبها مكانا أسمى وأقوى . فلا يمكن بعد ذلك أن تسلو هواك !

وبدا البشر فى وجه روميو ، ثم قطب جبينه فجأة وقال :

ـ أخشى ألا يسمح لها والداها بحضور المباريات ، أو أن تؤثر هى على مشاهدة المعارك التى تدور فيها ، خروجها للتنزه فى الحقول والبساتين !

ففكر مركوتشيو قليلا ثم قال له :

ـ ما أظن أن والديها يمنعانها ، ولكنها بطبعها تؤثر المناظر الخلوية الجميلة ، وينبغى أن نشوقها الى حضور المباريات

فسأله روميو فى لهفة : « كيف السبيل الى ذلك ؟ »

فقال : « هذه مهمة يسيرة ، وسأتولى القيام بها ، فاطمئن من هذه الناحية »

فلم يتمالك روميو عواطفه ، وأغرورقت عيناه بدموع الفرح والشكر ، ازاء تطوع مركوتشيو للقيام بهذه المهمة

وفى اليوم التالى ، توجه مركوتشيو الى قصر آل كابلليتى ، وأخذ يحوم حوله محاذرا أن يثير أى ريبة فى أمره ، ثم تلطف فى الاتصال

ببعض الخدم ، ونفحهم بعطية سخية من المال ، وأعرب لهم وهو يتظاهر بشدة الحياء والاحجام أنه يحب زميلة لهم لا يعرف اسمها ، ووصف لهم الخادمة الخاصة بجولييت

وتلقى الخدم اعترافه هذا بغير قليل من السخرية والاستهزاء ، لكنه تحمل ذلك صابرا ، ومضى فى تمثيل دوره ، وفى اكتساب عطف أولئك الخدم بكل ما عهد فيه من ذكاء ودهاء وسخاء ، الى أن لانت له قلوبهم وتطوع أحدهم لمعاونته على لقاء الخادمة التى زعم أنه يحبها ، وكانت هذه من السذاجة بحيث جازت عليها حيلته ، فتلقت غزله وحبه المصطنع لها بأحسن القبول ، ولم يفترقا الا على موعد للقاء جديد !

وفى هذا اللقاء الثانى ، استطاع مركوتشيو أن يحمل تلك الخادمة الساذجة على أن تدبر له وسيلة الى مقابلة أوزيبيا مرضع سيدتها ، زاعما أن زميلا له وقع فى غرام هذه المرضع ، وأنه يسره أن يتوسط لديها لكى تستجيب لغرام زميله

وما كاد مركوتشيو يخلو الى أوزيبيا حتى بدأ يمثل أمامها دورا جديدا ، فزعم لها أنه هو نفسه الذى تيمه حبها وأضناه ، وأنه انما تظاهر بحب تلك الخادمة لكى يصل بوساطتها الى لقائها هى وبثها مايجد من هيام بحبها واعجاب بجمالها

وكانت أوزيبيا فتاة متدينة مستقيمة لم تحب أحدا فى حياتها غير سيدتها جولييت ، ولم يسبق لها عهد بسماع عبارات الاعجاب بها والتودد اليها ، ولهذا سرعان ما لعبت عبارات مركوتشيو بلبها ، وشعرت بقلبها يهتز طربا واعجابا بالفتى المحب الوسيم الذى ساقته اليها الاقدار، على أنها برغم ما تملكها من الزهو والفخار بأنها أسرت فؤاده ، جاهدت لاخفاء عاطفتها الثائرة ، ولم تشأ أن تبت فى الامر ، واعدة بأن تفكر فيما عرضه عليها مركوتشيو ، ثم تنبئه بما يستقر عليها رأيها فى المقابلة التالية

ولم يشك مركوتشيو فى أن المرضع الفقيرة المحرومة من الحب قد استجاب قلبها الطيب لنداء حبه التمثيلى الزائف ، فاكتفى بأن قال لها وهو يهم بالانصراف :

— انى سأشترك فى المباريات التى ستقام بالمدينة عما قريب ، ولا شك فى أنها ستكون مباريات ممتعة مسلية تسر الناظرين · ويا حبذا لو حسنت لسيدتك جولييت أن تحضرها لكى يتسنى لكحضورها معها · فليس هناك ما يسعدنى أكثر من أن أشعر وأنا أنازل المنافسين حينذاك بأن عينيك الجميلتين تتابعنى نظراتهما وتنفخ فى قلبى روح الشجاعة والاقدام فيسهل على الانتصار !

وشد ما كانت فرحته حين لقيها فى المرة التالية ، فاذا هى تصرح له بأنها استطاعت اقناع جولييت بحضور المباريات اذا سمح لها بذلك والداها ، ثم قالت له وهى تغالب حياءها :

– على أنى لم أجد من المناسب أن أخاطبها منذ البـــداية فى شأن اصطحابها اياى الى شهود المباريات ٠ وأرجو أن أتمكن من اقناعها بذلك بعد حين !

وكانت فرحة روميو أشد ، حين قابله مركوتشيو بعـد ذلك وزف اليه البشرى بأن جولييت وعدت بأن تشهد المباريات

***

أخذت مدينة فيرونا تواصل الاستعداد للمباريات المختلفة بـــين شبانها ، وطاف المنادون بأنحائها طول الأســـبوع السابق للمباريات ، داعين النبلاء والأعيان وغيرهم الى الحرص على ألا يفوتهم الاشتراك فيها ، واظهار حفلاتها بالمظهر الرائع اللائق بها ٠ وكان بعض المنادين يستقلون جيادا مطهمة مسرجة ، ومن خلفهم بعض الفتيات الجميلات

وكذلك حرص السيد برتولوميو ديللا سكالا حاكم المـدينة على أن يشرف بنفسه على تنظيم كل مباراة ، بالتثبت من شخصيات النبـــلاء المشتركين فيها ، وحث النبلاء الآخرين على مشاهدتها ومعهم أسراتهم

وبدأت المباريات بمعارك الزوارق فى نهر الاديج ، فاصطفت زوارق المتبارين فى الحوض الطويل بين الجسر المؤدى الى البندقية فى الشـمال والجسر المؤدى الى مافتو فى الجنوب ٠ وأقيم وسط ذلك الحوض صندل كبير ، أعدت فوقه منصة عالية لجـلوس حاكم المدينة وحاشيته وخاصة أصـــدقائه ٠ والى يمينه جلس فريق الامبراطوريين وفى مقـــدمتهم آل مونتيكى ، والى يساره فريق البابويين وفى مقدمتهم آل كابلليتى ، وقد بدت جولييت بين والديها مرتدية أفخم الملابس مثلهمـــا ، ووجهها يتهلل بالبشر والحبور ٠ ووقفت أوزيبيا خلفها وفى يدها مروحة لتروح بها على وجه سيدتها اذا اقتضى الامر ذلك أثناء المباراة

وازدحم شاطىء النهر فى تلك المنطقة بأكثر أهـــل المدينة الذين بكروا بالتوجه الى هناك قبل الانتهاء من اقامة القداس ، ووقف كثير منهم على الأسوار والأسطح المطلة على الحوض ، وامتلأ الجو بضجة تصايحهم وتبادلهم التحيات والاحاديث ، وتبادلهم الشتائم واللكمات أحيانا

ووقف حرس الحاكم ، وحملة سلاحه ، والمنادون التابعون له ، بين فريقى الامبراطوريين والبابويين ، ليحولوا دون نشوب أى عراك بينهما ، فى حين كانهو يوزع تحياته وابتساماته على الفريقين بالعدل والقسطاس

وأخيرا نفخ فى الأبواق ايذانا ببدء المباراة ، فانطلقت الزوارق الى عرض النهر ، وكل منها يقوده ثمانية من المـــــلاحين ، بأيديهم مجاديف حمراء ، أو فضية اللون ٠ وعلى ظهورها وقف النبـــــلاء الشبان بثيابهم الملونة الزاهية الفضفاضة ، متوثبين للنزال

وتابعت جولييت بنظراتها تلك الزوارق ، وكانت نفسها قدحدثتها بأن ذلك الفتى القوى الجميل الذى راقصته فى الحفلة ولمحته بعد ذلك

فى الكنيسة المجاورة لقصرها ، قد يكون بين المتبارين ، وكان وجهها وهى تبحث عنه يعلوه الابتسام حينا ، والتجهم حيناً ، بحسب ما يصوره لها الخيال من انتصار الفتى أو فشله فى المباراة !

ولمحته أخيرا فى زورقه المنطلق به الى المعمعة ، وقد وقف منتصب القامة ، مشرق الوجه ، بادى القوة والجرأة والثبات • ورأته أوزيبيا فى اللحظة نفسها فربتت كتف جولييت وأشارت لها نحوه قائلة :

ــ انظرى يا سيدتى •• انظرى • ما أروع هـذا النبيل الشاب ذا الثوب الأخضر !

وصاحت بها جولييت محتدة قائلة دون أن تحول نظرها عن روميو:

ــ اسكتى •• لا تتكلمى وانظرى فقط !

وعرفت جولييت منازل روميــو ، فقد كان نبـيلا عمـلاقا من آل كابلليتى ،

ثم ترامت الى سمعها هتافات النظارة ، وبعضهم يهتفون قائلين : «كابلليتى» وبعضهم يرددون اسم «مونتيكى» فاشتد خفقان قلبهـا ، وأدركت لأول مرة أن فتاها ذاك من آل مونتيكى أعداء أسرتها القـدماء الألداء !

واشتبك الشابان فى عراك عنيف مثير ، وبذل كل منهما محاولات عدة للايقاع بمنافسه • ومضت فترة رهيبة بلغت فيها ضـجة النظارة أشدها • وقبل أن تنتهى الجولة الأولى تمـكن روميو من مغافلة منازله العملاق وأوقعه على ظهر زورقه بين الهتافات العالية والتصفيق الشديد !

وما بدأت الجولة التالية ، حتى كشر العملاق منازل روميــو عن أنيابه ، وتحفز للانقضاض عليه لينتقم لنفسه • واشتدت ضجة المشجعين من آل كابلليتى وأعوانهم ، وخيـل الى جولييت أن ذلك الانتقام سيكون هائلا مروعا ، فراحت تحدق فى الشابين مرتاعة ذاهلة ، وما هى الا لحظة يسيرة ريثما وثب قريبها العملاق لينقض على منافسه المتربص فى هدوء ، ثم اذا بهذا يزوغ منه فى حركة خاطفة غير متوقعة ، فهوى العملاق فى الماء ، بعد أن رسم بجسمه الضخم نصف دائرة فى الهواء !

وصفق النظارة طويلا ، وعلت الهتافات للبطل المنتصر روميــو مونتيكى ، فالتفتت جولييت الى أوزيبيا وهمست قائلة لها بصـوت مرتجف :

ــ أرأيت يا أوزيبيا •• هذا الفتى الذى انتصر على رجلنا اسـمه روميو •• روميو مونتيكى •• ألا تسمعين ؟!

وبقيت أوزيبيا صامتة ، وقد جحظت عيناها ، وفغرت فاها ، ثم غمغمت قائلة :

ــ روميو ؟ •• اسمه روميو ، ومن آل مونتيكى ؟!

ثم زفرت زفرة حرى ، وأضافت الى ذلك قائلة :

ـ فليكن ما يكون !

وعجبت جولييت من أمر مرضعها ، ولم تدر سبب ذهونها وقلقها فاشاحت بوجهها عنها ، ومضت تتأمل روميو وهـــو ما زال واقفا في زورقه ملوحا بذراعيه ردا لتحيات الجماهير التى طغت عليها الحماسة بعد انتصاره الرائع ، ثم قالت تحدث نفسها :

ـ نعم ٠٠ اسمه روميو ، وهو من آل مونتيكى ٠٠ فليكن مايكون !

وانتهزت أوزيبيا فرصة انشغال سيدتها عنها ، فسارعت الى رسم علامة الصليب على وجههـــا خفية ، وأخذت تتمتم ببعض عبارات الشكر للقديسة شفيعتها ، وتحدث نفسها قائلة :

ـ لقد كذب على اذ أخبرنى بأنه سيشترك فى مباراة اليوم ، ولكن حسنا ! ٠٠ لقد أنقذنى هذا من جنون محقق فى هواه لو أنه كان صادق الوعد ، وكان هو المنتصر الآن !

الفصل الخامس

القبلة الأولى

الفارس المنتصر

كان اليوم التالى قد حدد موعدا لاجراء مباريات متعددة مختلفة فى سباق الخيل والخنازير وألعاب الفروسية فى الميادين ٠

وقد حرص روميو قبل عودته الى قصر أبيه فى اليـــوم السابق على استكمال جميع الاجراءات المطلوبه لاشتراكه فى مبارزة الفرسان ، فقـدم لمنظمى المباريات الأوراق التى تثبت أنه من النبلاء ٠ ثم أعدجواده وخوذته وثيابه الخاصه بالمبارزة وسيفه وترسه واصدر تعليماته الى حاملى سلاحه ليكونوا على استعداد للتوجه معه الى ميدان المباراة عند شروق الشمس ٠

وأمضى ليلته يحلم بانتصاره الرائع فى معارك الزوارق على عمـلاق آل كابلليتى ٠ وبما وقر فى ذهنه من استجابة جولييت لحبه وظهور ذلك جليا فى متابعته بنظراتها اثناء النزال ، تلك النظرات المعبرة التى أغنتـه عن أى حديث أو تصريح !

ولم يكن لديه أى شك وهو يغادر قصر أبيه الى الميدان فى أنها ستكون هناك ٠ ومن هنا لم يشأ أن يضع على سلاحه شعار آل مونتيكى كما تعود فى مباريات مماثلة سابقة ، واكتفى بالشعار العام لمدينة فيرونا ٠

وحينما سئل فى ذلك اجاب بقوله :

ـ لا أريد أن يزعم أحدا فيما بعد أننى استعنت بشعار أسرتى ونفوذها السياسى على احراز الانتصار !

والحقيقة أن روميو خشى أن يكون فى وضع شعار أسرته على سلاحه ماينفر آل كابلليتى ، وقد تتأثر بهم جولييت فتنفر منههى الاخرى منساقة فى تيار العداوة التقليدية القائمة بين الأسرتين ٠ وهذا ما ليس يرضاه ٠

وقد سبقه الى الميدان كثير من النبلاء الشبان ؛ ولكن أحدا منهم لم يظفر بمثل ما استقبله به النظارة من التصفيق والهتـاف حين دخـــل ميدان المباراة على جواده ومن خلفه أحد أتباعه مدججا بالسلاح ٠

وتريث قليلا ليرد تحيات الجماهير ، ولــكن اهتمامه كان منصرفا الى البحث عن جولييت ، وشد ما كانت سعادته اذ لمحها جالسة فى مكانهـا بالأمس بين والديها الى يسار حاكم المدينة ٠ واكتفى كلاهما بأن تلاقت نظراتهما فى لمحة خاطفة لكنها تحمل من المعانى كل ما أراداه !

وتبارز النبلاء اثنين اثنين ، ثم أربعة أربعة ، وكان على الفارس المغلوب أو الذى يصيبه الاعياء ويرغب فى ترك المباراة أن يزيح خوذته قليلا الى

الوراء • وقد بارز روميو كثيرا من النبلاء واحدا واحدا ، كما اشترك مرات عدة في مبارزات جماعية ، ولم يحدث ان اضطر قط خلال هذه المبارزات الفردية أو الجماعية الى زحزحة خوذته الى الوراء •

والحق أن اعجاب النظارة ببراعة روميو فى المبارزة واحكامه تســـديد الضربات الغنية الى منازليه ، لم يكن يقل عن اعجابهم بوسامته وأناقته ، وابتعاده عن الزهو والكبرياء والخيلاء •

وفى الألعاب الختامية الجماعية للمباراة ، كان روميو هو المجلى أيضا، ولكن حدث قرب الانتهاء من تلك الالعاب أن هجم عليه أحد الفرسان من آل كابلليتى ووجه اليه ضربة من سيفه أودعها كل ما فيه من قوة وحقـد ورغبة فى الانتقام • وهنا امتقع وجه جولييت وتصبب العرق باردا من وجهها ، وكاد قلبها يقف لفرط جزعها • ولولا ان جف حلقها واحتبس صوتها فى تلك اللحظة لأطلقت صرخة دوت فى أرجاء الميدان وفضحت من أمرها ما كان فى طى الكتمان !

على أن روميو ، استطاع بمعجزة أن يروغ من تلك الضربة الغادرة ، فأصابت جواده بدلا منه ، وكبا به جواده الجريح خلال عدوه بأقصى سرعته، وسقط هو تحت الجواد • لكنه ما لبث أن نهض منتصب القامة وضاح الجبين باسم الثغر ، وخطا بضع خطوات فى خفة ورشاقة ، ثم وقف يرد تحيات الجماهير التى انطلقت هتافاتها تشق عنان السماء ، وتطغى عـلى الأبواق التى نفخ فيها ايذانا بانتهاء المباراة !

وحينما اتجه ببصره الى منصة الحاكم ليرد تحيته ، التقت عيناه مرة أخرى بعينى جولييت ، وشعر بأن فى نظراتها ما هو أقوى وأعلى من كل هتاف وتصفيق !

وفى المســـاء اقيمت بقصر الســـيد مونتيكى حفلة كبيرة ابتهاجا بالانتصارات الرائعة التى أحرزها روميو فى مختلف المباريات • وامتلأ القصر على سعتـــه بالمدعوين والمدعوات ، وشرب الجميع حتى ثملوا رجالا وسيدات ، ولبثوا يشربون ويطربون ويرقصون حتى ساعة متأخـرة من الليل •

وكان روميو يتلقى التهانى بما عهد فيه من وداعه وتواضع وحياء • ولم يشأ أن يشرب طول الحفلة غير كأس واحدة ، أبقاها طويلا فوق شفتيه وهو مسبل الجفنين ، وعلى لوحه مخيلته صورة جولييت كابلليتى ترنو اليه وتبتسم ، فيهتز لفرط غبطته وسعادته من قمة رأسه الى أخمص قدميه . ويخيل الى ناظريه انها فرحة بالانتصار فى ميدان المباريات ، وما هى الا فرحة الشعور بالحب المتبادل والأمل فى المستقبل المشترك المنشود •

أما جولييت ، فعادت الى قصر أبيها بعد انتهاء المباراة واعتكفت فى غرفتها بعد أن بدلت ثيابها بمعاونه أوربيبيا ، ولم يخف على هذه سر ابتهاج سيدتها ومرحها وتهلل وجهها ، وطافت بذهنها صـــورة مركوتشيو ذلك العاشق المتيم الذى ما كاد يظهر حتى اختفى ، فتنهدت وقالت لجولييت :

ـ ان الطقس اليوم كان جميلا منعشا كمناظر المبارزات التى شهدناها !

وحدجتها جولييت بنظرة فاحصة ، فأدركت أن صدر المرضع الوفية ينطوى على سر تجاهد لابقائه مكتوما ، ولم يكن لديها وقت لاستطلاع ذلك السر ؛ فتلطفت فى صرف مرضعها ، لكى تخلو الى نفسها فى شرفتها ، وتملأ رئتيها من هواء الليل الجميل البليل ، وتستعرض بذاكرتها مناظر اليوم والامس قبله ، ولم يكن فيها منظر يخلو من وجه روميو .. روميو الجميل البطل الذى انتصر على كل منافسيه !

تحت شرفة جولييت

عجب مركوتشيو من أمر صديقه روميو حين اعتذر هذا من أنه لا يستطيع تمضية السهرة معه ، وكانا قد اتفقا على ذلك من قبل ٠

وكانت حجة روميو أنه ما زال تعبا بعد الجهود التى بذلها فى المباريات ، فهو لذلك أشد حاجة الى الراحة منه الى اللهو والتسلية ٠

ولم يشأ مركوتشيو أن يكثر جداله فى هذا الأمر ، اذ أدرك أنه يريد أن يخلو الى نفسه والى الذكريات العذبة التى خلفها فى ذهنه لقاء جولييت ٠ وعلى هذا غادره متمنيا له الراحة والعافية ، وعاد من حيث جاء ٠

ولم تمض دقائق ، حتى غادر روميو وحده قصر أبيه ، ومضى يجتاز شوارع فيرونا الضيقة ، آخذا طريقه الى قصر آل كابلليتى ، فلما بلغه راح يطوف حوله ؛ ويتأمل أسواره محدثا نفسه قائلا :

ـ هنا نشأت جولييت وترعرعت ٠ وهنا لقيتها فى الحفلة فغنينا ورقصنا معا ٠٠ وتبادلنا نظرات الحب والاعجاب والاخلاص !. ٠٠ آه ماأحلى عينيها ! ٠٠ وما أروع ابتساماتها وأرشق حركاتها واشاراتها !

وكانت المدينه كلها تغط فى نوم عميق ، وقد ساد المنطقة سكون الليل فلم يكن يسمع سوى نقيق الضفادع فى الحقول والقنوات المجاورة ، وبين الفينة والفينة يسمع وقع خطوات الحارس المسلح الساهر فوق سطح القصر وهو يمشى فى تثاقل ليطرد عن عينيه النعاس ٠

وواصل روميو طوافه حول القصر ، متسترا بظلال الاشجار القائمة بجانبه حتى لا تقع عليه عين الحارس فى ضوء القمر الذى كان بازغا حينذاك ووقف بعض الوقت تحت سقيفة هناك ، ثم لاح له ضوء قنديل خافت ينبعث من غرفة ذات شرفة منخفضة لا يزيد ارتفاعها فوق سطح الأرض على عشرة أقدام ، ولاحظ أن هذا الموضع من القصر ليس محصنا ، فأخذ يسائل نفسه قائلا :

ـ أهذه غرفة جولييت ؟ ٠٠ وهل هذا القنديل يلقى أشعتهعليها الآن وهى ممددة فى سريرها وأهداب عينيها تظلل خديها ؟ ٠٠ ولكن لا ٠٠ لا يمكن أن تكون هذه الغرفة المتواضعة غرفة جولييت ٠

وبقى ساعة أو أكثر وعيناه لا تفارقان الشرفة الماثلة أمامه والقنديل المعلق خلفها ، وحدثته نفسه غير مرة بأن يتسلق السور ويصل الى تلك الشرفة ، ولكنه كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ؛ وفى بعض الاحيان كانت جرأته تتغلب على احجامه فيغادر مخبأه ويهم بتسلق السور ، ثم يسمع



روميو يتسلق شرفة جولييت

وقع خطوات الحارس أو يخيل اليه ذلك ، فيعاوده الاحجام ويكر راجعا الى مخبئه تحت السقيفة ٠

ولم يرجع روميو الى قصر أبيـــه الا حينما بدأت طلائع النهار تملأ الافق فتفر أمامها جحافل الظلام !

وفى الليلة التالية ، عاد روميو الى مكانه بالامس ، وبقى ساعات فى تلك السقيفة يرقب منها الغرفة المضاءة ذات الشرفة المنخفضة القريبة ٠

وقوى شعوره فى هذه المرة بأنها الغرفة الخاصة بجولييت ، وان لم يكن لديه على ذلك أى دليل !

وحينما دقت ساعات المدينة مؤذنة بانقضاء ساعتين بعد انتصـــاف الليل ، تسلل خارجا من مخبئه ، ثم تريث قليلا حتى تحقق أن ليس ثمة من يشعر بوجوده هناك ، ثم واصل تسلله متجها الى الشرفة وقد تعلقت بها عيناه ، وكان الطقس حارا ، وضوء القمر يغمر القصر وما حوله مـن الحقول والبساتين ٠

وحدث فى هذه اللحظة ما جعله يقف ذاهلا حائرا فاغرا فاه لفرط دهشته وقد زايلته شجاعته وجرأته ، فقد فوجىء بفتح النافذة الصغيرة المؤدية الى الشرفة وظهور جولييت خلفها بوجهها المشرق الوضاح !

وهم روميو بالرجوع الى مخبئه ، ولكن عيني جولييت اللمـــاحتين استقرتا على شخصه ، ثم سرعان ما هتفت قائلة فى صـــوت مرتعش النبرات :

ـ من هناك ؟

وتسمر الفتى فى موضعه ، ولم يدر كيف يجيب ، ولكنه خشى أن يزيد صمته فى قلقها وخوفها ، فنصب قامته الفارعة ورفع وجهه نحوها ، ثـــم قال هامسا :

ـ اطمئنى يا سيدتى ٠٠ اطمئنى كل الاطمئنان !٠٠ اننى لاأريد لك الا الخير ، وأريده لك من صميم فؤادى ، اننى أنا ٠٠ روميو !

وبقيت جولييت تحدق فى وجهه هنيهة وقد انحنت قليلا فوق حاجز الشرفة ، ثم همست قائلة وقد عرفته :

ـ أنت السيد روميو مونتيكى ؟! ٠٠ عجبا ! ماذا أتى بك الى هنا ، وأى شىء تريد ؟

فخطا روميو خطوتين نحوها ، وهمس قائلا :

ـ ان الليل لطيف هنا ! ٠٠ وقد جئت لانعش به قلبى وأمتع به عينى بعد أن جفانى المنام !

وملأت جولييت رئتيها من هواء الليل ، ثم قالت له :

ـ أنا أيضا لم أستطع النوم ، وشعرت بأنى فى حاجة الى هواء الليل ، ولكن ٠٠ ثم سكتت ولم تتم عبارتها فأدرك انها لم ترد أن تسأله مرة أخرى

عما أتى به الى ذلك المكان تحت شرفتها ، وزاده هذا ايمانا بأنها تبادله الحب ، فتنهد هو الآخر وقال لها :

ـ ما أجمل الطبيعة هنا وما أبدعها ! ‥ ان القمر يرسل ضـــوءه الهادىء على البساتين والحقول والغدران ٠ وهذا النسيم اللطيف يوقظ الزهور والرياحين من سباتها فتفتح عيونها للضوء وتبتسم وتتمايل فتملأ الجو فتنه وبهجة وعطرا ! ‥

ولمعت عينا جولييت ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة ثم وضعت يدها فجأة على قلبها ، وتراجعت قليلا فى موقفها خلف النافذة ، وقالت فى صوت ينم عن القلق والاضطراب :

ـ عم مساء يا سيدى !

وهمت بالتراجع ، فابتدرها روميو قائلا فى لهفة وتوسل :

ـ سيدتى ‥ لا تحتجبى عنى هكذا ! لا تجعلينى أتهم نفسى بأنى حرمتك شيئا كان ينعشك ويسعدك ٠

فتريثت ووقفت هنيهة جامدة كأنها تفكر فى شيء ، ثم عادت فانحنت على حاجز الشرفة ، وهمست قائلة له :

ـ ان هواء الليل منعش ، والقمر جميل ، وليس أحب الى من أن أبقى هنا ما دام هذا يسعدنا معا ! ‥ ولكن أبى يغضبه ولا شك أن يعلم أنى أسهر هكذا ‥ وان غضبه ليكون أشد وأدهى ان علم بأنى تحدثت اليك!

فقال لها روميو :

ـ لماذا ؟ ‥ ليس هناك مطلقا ما يدعو الى ذلك ‥ اننى أجلك وأقدرك ولا يمكن أبدا أن أنظر اليك كما أنظـــر الى عدو ‥ هـل تعديننى أنت عدوا ؟

فابتسمت جولييت ، ثم قالت له :

ـ كلا ! ‥ أنا لا أعـــدك كذلك ، ولكن التقاليد تقضى بأن أجتنب الاتصال بأى أحد من أسرتك ـ أنسيت ما بين أسرتينا من عداء مستحكم قديم ؟

فقال لهـــا : « لكننى لا يمكن أن أســـمح لنفسى بأن أبغضك أو أخشاك ! »

قالت : « وأنا أيضا لا أسمح لنفسى بأن أبغضك أو أخشاك ، غير اننا لا نستطيع أن نخرج على تقاليد أسرتينا ٠ وهكذا أرادت الاقدار !»

فسكت روميو هنيهة ، ثم مط شفتيه وهز رأسه أسفا وقال :

ـ صدقينى ‥ ان اسم الاسرة فى اعتقادى لا دخل له فيما تـــكن الصدور والقلوب ‥ ولو اننا سمينا الوردة شوكة والشوكة وردة لظـل عبير الوردة يفوح وينعش الصدور ، وظلت الشوكة تجرح وتدمى وتوجع !

وكان روميو يتكلم بكل قلبه ، وعيناه شاخصتان الى جولييت • فما كاد يتم عبارته حتى رآها ترفع يديها عن حاجز الشرفة فجأة ، ثم قالت له في صوت مرتجف فيه مزيج من الخوف والقلق والصراحة والاخلاص •

ـ ان قلبى يخفق أيها السيد ، ويخالجنى الشعور الآن بأن وقوفنا معا هنا فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ليس مما يدعو الى الاطمئنان

ثم ازداد صوتها اضطرابا وتقطعا وواصلت كلامها فقالت :

ـ نعم أيها السيد •• أنى خائفة •• وأشد ما أخافه أن يكون مجيئك وحدك الى هنـــا الآن انما دفعك اليه ماتكنه أسرتك لأسرتى من العـداوة والبغضاء ، ولعل أحدا يأتى الآن فيرانا •• وحينئذ تفخر أنت وأسرتك بأنك استطعت أن تلحق العار بأسرتى ، وايا ما كان الامـــر • أرجو أن تذهب ، بل أنا استحلفك أن تذهب !

وسادت فترة صمت وســكون ، كانت جولييت خلالهـــا تنتفض فى وقفتها ، والقلق والجزع يملآن جوانب نفسها ، فى حين شعر روميو بأن موجة من الشفقة والحنان تغمره من قمة رأسه الى أخمص قدمه : وقال لها :

ـ كلا ياجولييت !•• اننى ماجئت الى هنا الا لأننى أجلك وأقـدر مزاياك وشمائلك الحسان .. وان أقصى ما أرجوه أن تثقى يا فتاتى الجميلة الفاضلة بحبى واخلاصى اللذين أشهد الله عليهما !

وبقيت جولييت تنتفض ، ولكنها فى الوقت نفسه عادت الى موقفها الاول مسندة ذراعيها الى حاجـــز الشرفة ؛ وعيناها معلقتان بشفتيه ، فاستأنف كلامه وقال :

ـ لا تحرمينى نعمة النظر اليك ، ولا التمتع بحديثك ؛ انك تسعديننى حين أراك ، وان طيفك يبهجنى حين أكون وحدى ، اننى أضع حياتى كلها بين يديك ورهن اشارة منك •• فثقى بى يا فتاتى ، وكونى على يقين مـن أن سعادتك هى سعادتى وكل أملى فى الحياة • نعم ان العداء بين أسرتينا قديم مستحكم ، ولكن ما ذنبى أنا وما ذنبك أنت فى هذا ؟ •• ثم مـن يدرى ؟ أليس من الجائز أن يـــكون فيما يعمر قلبينا من وفاء واخـلاص ومحبة ، ما يذهب بأحقاد الاسرتين النبيلتين ، ويضع حدا لما أنهكهما من المعارك والخصومات ؟!

وشعرت جولييت شعورا عميقا باخلاص روميو فى حبها ، وكانت تنظر الى وجهه فى ضوء القمر فتراه قد ازداد روعة وبهاء ، وتحس أن صوته ينساب فى أذنيها انسياب الاغنية العذبة اللطيفة ، ويصل الى قلبها فى رقة وهدوء •

وقالت لنفسها : « هنا قد تحققت أعز أمنية راودت خيالى ، ان هذا الفتى النبيل الجميل يحبنى حقا •• ولم يخدعنى قلبى حين أحببته منـــذ رأيته » •

وهكذا وجدت نفسها قد اطمأنت اليه كل الاطمئنان ووثقت به كل الثقة ، وبعد ان كانت تخشاه على نفسها وعلى أسرتها ، صارت تخشى عليه هو أن يناله مكروه اذا شعر أحد بوجوده تحت شرفتها ، واستبد بها هذا الشعور وملك عليها كل حواسها ، فقالت له :

ـ أيهـــا السيد النبيل : انى أصدقك .. ولكنى مضطرة الى أن ارجوك مرة أخرى أن تغادر هذا المكان حتى لايراك انسان ، لأنى أخشى أن يكون فى بقائك خطر على حياتك !

واشتد تأثر روميو ، وأحس أن حبها نفخ فى روحه قوة جـــديدة كبيرة ، فقال لها :

ـ لن أخشى أى خطر على حياتى مادام قلبك معى ومادام حبك يؤنسنى ، وانا هنا فى قربك أبعد من الخطر منى فى أى مكان آخر . على أنى أصارحك القول بأنى لم أكن يوما ما اشد رغبة فى الحياة منى الآن ، فقد كانـت حياتى قبل ذلك قلما تهمنى ، أما وقد استجابت السماء لتوسلاتى ؛ وصار لى أن أؤمل فى أن نتحد معا فى حياة واحدة مشتركة سعيدة . فليس هنا من يستطيع أن ينتزع منى هذه الحياة !

واغرورقت بالدمع عينا جولييت ، واشتد خفقان قلبها ، ولكنها فى الوقت نفسه لم يسعها الا أن تبتسم اذ أحست فى هذه اللحظة أن فيضا من السعادة قد غمر كيانها كله ، وفتحت فمها لكى تتكلم ، لكنهالم تستطع لفرط تأثرها ، فبقيت ساكتة ترنو اليه والدموع تنحدر على خديها .

وحينئذ مد روميو يديه فأمسك بعض أغصان النباتات المتسلقة الممتدة من شرفة جولييت حتى السور الذى يقف أدناه ، وفى أقل من دقيقة كان قد تسلق السور وتخطى حاجز الشرفة فصار بجانب الفتاة ، ثم ركع عند قدميها ورفع وجهه اليها وعيناه تفيضان بالدمع مما عرف من الحب .. ثم تناول يدها المرتجفة فى تلطف وترفق وطبع على أناملها قبلة طويلة حارة أودعها كل ما يختلج به فؤاده من حب صادق منزه مكين !

ولم ينبس هو ، ولا هى ، ببنت شفة .. ثم نهض وتخطى حاجز الشرفة الى السور حيث هبط الى مكانه الاول ، ثم لوح لها بيده مودعا وهو يبتسم فودعته بابتسامة أيضا ، وبقيت تتبعه بنظراتهـــا حتى اختفى فى ثنيات الطريق !

قبلة مع النسيم

لم يتفق روميو وجولييت على موعد يلتقيان فيه من جديد ، فقد أذهلتهما عن ذلك نشوتهما بفرحه ذلك اللقاء الاول السعيد ٠

وأمضت هي يومها ساهمة مفكرة ، وكانت تشعر بأنها غريبة فى قصرها بين آلها وخدمها ، لكنها في الوقت نفسه تشعر بأنها أسعد كثيرا مما كانت ، وبأنها برغم الهمود الذى انتاب جسمها وأرخى مفاصلها ، لم تكن فى يوم من الايام أقوى وأصح مما هى فى ذلك اليوم ٠

وأمضى هو يومه فى قصر أبيه معتكفا فى غرفته لم يذق أى طعام . ولم يكد يفهم شيئا مما وجه اليه من كلام ، فقد كان هناك بجسمه فقط ، أما قلبه وعقله فكانا محلقين هناك عند شرفة جولييت !

وفى أصيل ذلك اليوم أوت جولييت الى غرفتها ، وتمددت فى سريرها ثم أطبقت جفنيها وأسلمتهما الى سنة من النوم ، تخللتها أحلام جميلة لطيفة كان روميو هو المحور الذى تدور حوله كل وقائعها ومشاهدها ٠

وحينما جاءت مرضعها أوزيبيا تدعوها الى العشاء ، اعتذرت بحاجتها الى النوم والراحة ، وصرفتها متلطفة لكى يخلو لها وجه روميو فى تلك الاحلام !

وانقضت ساعات وهى تتقلب فى فراشها ، مستغرقة فى أحلامها اللذيذة بين اليقظة والمنام ، ولم يكن ثمة ما يقطع عليها ما هى فيه الا دقات ساعات المدينة من ساعة الى ساعة ٠ فلما دقت هذه الساعة دقتين اثنتين بعد منتصف الليل ، أخذ قلبها تتسارع دقاته ، وساورها قلق شديد ، وشعرت فجأة بأنها تكاد تختنق لشدة الحر ، مع أن الجو فى تلك الليلة كان غاية فى الاعتدال !

ولم يسعها الا أن تنهض وتغادر فراشها متجهة الى النافذة المؤدية الى الشرفة ، ثم فتحتها وألقت نظرة على الأفق الممتد أمامها ، فأحست غير قليل من الانتعاش ، وما لبثت أن اتجهت ببصرها على غير ارادة منها الى أدنى السور تحت الشرفة حيث كان روميو الحبيب يقف مناجيا اياها بالامس ، وما كادت تفعل حتى ندت من صدرها آهة خافتة ، وتسمرت فى مكانها وعقدت الدهشة الممزوجة بالفرحة لسانها ؛ وبقيت شفتاها منفرجتين دون كلام ، وعيناها تحملقان ، وقلبها يخفق خفقان الارتياح والحبور ٠

لقد جاء روميو فى موعد الامس ، وما كاد يراها فى الشرفة حتى سارع

فى رشاقته المحببة فتسلق السور ، وقبل أن تفيق من دهشتها كان راكعا أمامها ، وشفتاه على أناملها وعيناه تقولان لعينيها فى لحظة ما لا يستطيع اللسان أن يلم به فى أيام بل أعوام !

وبقى الحبيبان الشابان فترة غير قصيرة يرفرف عليهما الصمت والسكون ، واختلطت أنفاسهما المتلاحقة بأنفاس النسيم المحمل بعبير الزهور والرياحين ، وتقاطعت أشعة نظراتهما بأشعة القمر المطل عليهما من عليائه فى جلال ووقار .

ثم تكلم روميو أخيرا ، فأخذ يروى لها هامسا كيف نبت هواها فى فؤاده ، وكيف شغله منذ اللحظة الأولى عن كل شىء عداه ، وبدله بحياته الاولى حياة أخرى هى شمسها وقمرها ، وهى ثمارها وزهورها ، ويقظتها ونومها وأحلامها .

وكانت جولييت تصغى اليه بكل جوارحها ، ونظراتها وابتساماتها تستزيده ، وتعلن سعادتها بما تسمع من همساته واعترافاته . فمضى يشرح لها ما حدث منذ رآها لتلك المرة الاولى صبية تلهو فى حمايه وصيفاتها بالنهر ، ثم حينما سحرته بجمالها واناقتها وغنائها ورقصها فى الحفلة التى أقيمت بقصر أبيها ، وسعيه بعد ذلك للقائها فى شوق ولهفة الى أن جمعتهما الصلاة فى الكنيسة فأدرك من نظرتها أنها تكن له مثلما يكن لها ، ثم اعترف بين يديها بأنه سعى بعد ذلك فى سبيل حضورها المباريات السنوية للمدينة ، وكان حضورها أكبر مشجع له على اظهار أقصى مافى استطاعته من براعة فى النزال ، لانه يؤثر الموت على أن تراه منهزما غير جدير بالتقدير والاعجاب !

وكان واضحا أن جولييت قد أولت روميو كل تقديرها وثقتها ، وأنها قد عرفته حق معرفته ، فلم يبق هناك ما يمكن أن تخشاه من ناحيته .

وفى بعض الاحيان ، كان خيالها ينطلق محلقا فى أجواء المستقبل المجهول ، فتتصور نفسها وقد حيل بينها وبين هذا الحبيب النبيل الجميل، بسبب ما بين أسرتيهما من خصومات وثارات . وحينئذ كانت تنتفض فى وقفتها كما ينتفض العصفور الذى انقض عليه أحد النسور ، ثم سرعان ما تتبين أن ما روعها ليس سوى خيال ، وأن روميو ما زال راكعا بين يديها فى شرفتها يناجيها ويشرح لها هواه وتفانيه فى سبيل سعادتهما المشتركة ، فيذهب عنها الروع ، وتعود ابتسامتها المرحة الى شفتيها ؛ وتتابع همساته اللطيفة فى جذل وابتهاج ، بينما تحدث نفسها قائلة :

ــ كلا ! . ان الاقدار أرحم من أن تحول بينى وبين عينيه الصافيتين الوادعتين ، وأنفاسه الطاهرة التى تترجم عن قلبه الطيب الكبير !

وأخيرا ، أمسك روميو يد جولييت بين يديه ، ولمعت عيناه ببريق الحزم والعزم والمضاء ، وقال لها :

ــ لقد خلقنا للحب ، وخلق الحب لنا .. ولم يبق ثمة أى شك فى اتحاد قلبينا وروحينا .. فأنت يا جولييت أمنيتى الكبرى فى حياتى ، وفى

بقائك بجانبي تركزت كل رغباتي وأحلامي وأنا الآن أشعر كل الشعور بأنك تفهمينني وتثقين بي ٠٠ وتؤكد لي ذلك عينـــاك الصادقتان ، ويدك التي ترتعش في يدي الآن ٠

ثم رفع وجهه الى السماء الصافية الاديم ، وموكب القمر يسرى عبر طريقه الفضى فى تؤدة وسكون ، وواصل كلامه فقال :

ـ أى جولييت الحبيبة ٠٠ أننى أشهد هذه السماء ذات الجلال ، وأشهد القمر والكواكب المطلة علينا ؛ والنسيم المرفرف بأجنحته حولنا ، وأشهد الكون كله على انك وحدك متجه افكارى ومسبح خواطرى ، وغاية آمالى فى الحياة ، ومن أجل ذلك أرجو أن تعاهدينى الآن على أن تكونى لى ، كما عاهدتك على أن أكون لك ما حييت !

وسكت روميو ، وتعلقت عيناه بشفتى جولييت فى انتظار ما تقوله ردا على هذا الطلب الصريح ٠

وابتسمت جولييت ، وبدت فى نظراتها دلائل الارتياح والسرور ، ولكنها بقيت ساكتة ، ولم ترد بأية كلمة ٠

فاستأنف هو كلامه فى لهجة كلها توسل وتضرع وقال لها :
ـ تكلمى ياجولييت ، قـــولى ٠٠ انك توافقين على أن يكون كل منا للآخر قلبا وقالبا حتى الموت ٠٠ تكلمى يا حياتى ٠٠ ماذا تخشين ؟ ٠٠ عاهدينى كما عاهدتك على أن نكون زوجين !

وهنا قربت جولييت وجهها من وجه روميو ، وقالت فى صوت يفيض بالحب والحنان :

ـ روميو ! ٠٠ أيها الحبيب الحنون ٠٠ اننى أحبك الى أقصى ما يستطيع انسان أن يحب ٠٠ وهل أدل على ذلك من موقفنا الآن ٠٠ ألا ترى أنى منحتك ثقة لا تقف عند حد ؟

ثم غصت بريقها ، وقالت وقد تهدج صوتها :

ـ أى روميو العزيز ٠٠ ان حبى لك ليس يعدله الا اعجابى بخلالك النبيلة ومزاياك الجميلة ٠٠ ولولا هذا ما كان لى أن أجـــازف بسمعتى وكرامتى وكرامة أسرتى وأسارع الى لقائك هذه الساعة أنت سليل آل مونتيكى ، هنا فى شرفتى ، بقصر سيد آل كابلليتى ٠

وسكتت جولييت مرة أخرى ، فتشبث روميو بيدها ، ونظـــر اليها متوسلا وقال :

ـ تكلمى يا جولييت ، تكلمى ٠٠ أتقبلين أنت ابنة السيد كابلليتى أن تتزوجينى أنا ٠٠ أنا ابن السيد مونتيكى ؟
وهنا اختلجت يدها بين يديه ، وقالت له :
ـ نعم يا روميو ٠٠ أعاهدك على ألا أكون زوجة لاحد سواك ، وأرجو أن تكون على يقين من أنى على استعداد لأن أتبعك الى أى مكان تشاء !

وهنا زحف روميو على ركبتيه وهو راكع أمامها ، ثم مد يديه وأمسك ذراعيها ، واجتذبها اليه فى رفق وحنان ، وطبع على خدها قبلة خاطفة حارة ، ثم قال والنشوة تهزة هزا :

ـ جولييت ·· انك معبودتى ، وأنا عبدك منذ الآن !

وكان الفجر قد بدأت تباشيره تبدو فى الافق ، وأخذت العصافير تغرد على غصون الاشجار المحيطة بالقصر مستقبلة اليوم الجديد ؛ فتحفز روميو للانصراف ، ونهض من ركوعه فوقف أمام جولييت وابتسم لها مودعا ، فمدت يدها اليه مبتسمة هى الأخرى ·

ومضت هنيهة وهما متصافحان ، وقد استغنيا بتبادل النظرات عن كل كلام · ثم لاحت له فكرة استحسنها فقال :

ـ ما رأيك ياجوليت ؟ ·· ان السير برتولوميو ديللا سكالا رجل حازم صالح القلب ، وأكبر همه كما تعرفين أن تتخلص فيرونا خلال حكمه من المعارك التى تقيمها الخصومات والاحقاد ، فلماذا لا نضع حبنا فى حمايته ؟ ·· انه ولا شك سيباركه ويرى فى ذلك خير وسيلة الى بلوغ تلك الغاية التى يسعى اليها ·

وشاع البشر فى وجهها ، وقالت له :

ـ هذه فكرة حسنة لا شك فى ذلك ·

ووصل الى سمعهما فى هذه اللحظة وقع أقدام فى الطريق الممتد الى جوار القصر ، فتراجعا من الشرفة مبغوتين ، ثم سرعان ما تبين روميو أنها أقدام بعض العمال المبكرين الى الحقول القريبة فأبتسم واستأنف كلامه فقال لجولييت :

ـ اذن ·· انت توافقين على أن أزور السيد ديللا سكالا فى قصره وأخاطبه فى هذا الأمر ؟

فلم تجبه أول الامر ، بل نظرت الى ضوء النهار الذى بدأ ينتشر ويغمر الافق ، ثم مرت بيدها على شعره ونظرت فى عينيه وقالت له ويداها تدفع كتفيه فى رفق وتلطف :

ـ روميو ! ·· هيا ·· ان الشمس آذنت بالشروق ·· أنسيت ما قلته من أن حياتك لم تعد لها أهمية فى نظرك ؟ ·· هيا ياروميو ·· ولك بعدئذ أن تقابل الحاكم وتخاطبه باسمك واسمى بما تشاء ·

فنظر اليها نظرة عميقة ضمنها كل ما يكنه لها قلبه ، ثم هبط من الشرفة الى السور فالطريق · والتفت اليها قبل أن ينصرف فرآها تنظر اليه من الشرفة وترسل اليه قبلة مع نسيم الصباح !

وساطة لم تتم

خرج روميو من قصر أبيه فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، وقد أرتدى أفخر ماعنده من الثياب ، وأخذ يحث الخطى فى طريقه الى قصر حاكم المدينة ٠

واستقبله السيد برتو لوميو مرحبا به كل الترحيب ، وراح يكرر له تهنئته الحارة على ما أحرز فى مباريات المدينة من انتصار رائع مبين ٠

وقال له روميو بعد أن شكره على تهنئته الرقيقة وحسن ترحيبه :

ــ ان الفضل الاكبر فى نجاح تلك المباريات انما يرجع الى حسن عنايتكم ورعايتكم وشدة حرصكم على خير المدينة ٠ وقد جئت الآن لأعرض اقتراحا اعتقد ان تنفيذه يكسب المدينة كلها نصرا أكبر وأبقى وأليق بعهد حكمكم العادل السعيد !

ثم أخذ روميو يقص على الحاكم الحازم الطيب القلب قصة الحب الذى ربط بين قلبه وقلب جولييت ابنة السيد كابلليتى ، ثم تعاهدهما على الزواج ، واتفاقهما على اللجوء أليه ليستخدم نفوذه ومكانته فى تمهيد السبيل لاتمام هذا الزواج الشريف ، واتخاذه وسيلة الى صلح دائم بين أسرتيهما ، وبذلك يرفرف السلام والسعادة على فيرونا ، ويتطهر جوها من الاحقاد والمعارك التى تفسده من حين الى حين منذ عشرات السنين !

وأصغى السيد برتولوميو ديللا سكالا لاقتراح روميو فى اهتمام كبير ، والتمعت عيناه ببريق البشر والاعجاب ، ثم قال له :

ــ انى أبارك حبكما الطاهر النبيل من كل قلبى ، وليس أحب الى من أن أسعى جاهدا لاتمامه ، وانك لتعلم يا بنى كم سعيت وبذلت الجهود فى سبيل التوفيق بين أسرتيكما الكبيرتين ٠ وأؤكد لك أنى سأبادر بانتهاز هذه الفرصة المباركة لمعاودة السعى فى هذا السبيل ، ولن أدخر جهدا يقربنا من غايته حتى نبلغها بتوفيق الله ٠

ولم يملك روميو عواطفه ازاء هذا الوعد الكريم ، فاغرورقت عيناه بدموع الفرح والشكر ، وقال :

ــ ان فيرونا كلها تعلم علم اليقين انها فى تاريخها الطويل لم تظفر بحاكم فى مثل عدالتكم وحزمكم ونبل مقاصدكم وحبكم الخير للجميع ٠ وان أهلها على اختلافهم ليتحدثون بهذا فى مجالسهم وخلواتهم ٠ ومن أجل ذلك لم نجد ملجأ الا اليك ، وانى أسأل الله أن يوفق مسعاكم الحميد المبرور ٠

وابتسم له الحاكم شاكرا ، ثم قال له

ـ ليس يخفى عليك يابنى العزيز ان الشروع فى أمر كهذا ذى شأن كبير ، لا بد أن تسبقه استعدادات خاصة وتمهيدات لدى كل من الاسرتين ٠ ومن أجل ذلك ينبغى لك ولحبيبتك أن تتذرعا بالصبر ، وان تنقطعا عن اللقاء علانية أو خفية الى أن يكتب لمساعينا النجاح المنشود ٠ فهل انتمـا على استعداد للعمل بهذه النصيحة ؟

فظهر الارتباك فى وجه روميو ، ثم قال متلعثما :

ـ اننا نشكر لسيدى الحاكم كل الشكر نصيحته الغالية الثمينة ، ولا يخالجنا أدنى شك فى حكمته البالغة التى اقتضتها ، ولكن ٠٠ الا يمكن الاكتفاء بامتناعنا عن اللقاء علانية ؟

فابتسم السيد برتو لوميو ، وقال لروميو متلطفـا : ان هذا الذى تبديه من الصدق والصراحة ، لمما يزيدنى اعجابا بك وايمانا فى اخلاصك فى الحب ٠ وأنا أعلم دقة موقفكما وصعوبة امتناعكما عن اللقـاء مع ما يعتلج فى قلبيكما من الشوق الشديد ٠ ولكن للضرورات أحكامـا قاسية ٠ وهذا الصبر المرير الذى أنصح لكما بالتزامه هو لصالحكما قبل كل شىء ٠

وسكت روميو مكتفيا بالتنهد ، وبدت الحيرة والحسرة فى نظراته ، فرثى الحاكم لحاله وسأله :

ـ ألست واثقا من حبها لك ، وبقائها على العهد ؟

فأجاب روميو على الفور قائلا :

ـ بلى ياسيدى ، أنا واثق من اخلاصها كل الثقة ، وقد تعاهدنا وأقسمنا لينتظرن كل منا الآخر الى ماشاء الله ٠

فقال له الحاكم : « حسنا ! ٠٠ فى استطاعتكما اذن ان تعتصما بالصبر حتى يأذن الله بالفرج ، وأرجو أن يكون قريبا » ٠

فتنهد روميو مرة أخرى ، وأطرق هنيهة صامتا مفكرا ، ثم رفع رأسه وقال للحاكم :

ـ فلتكن مشيئة الله .. اننى اعدك يا سيدى بأن نحرص على اتباع نصيحتك وأن نكون عند حسن ظنك ، وأكرر لك الشكر باسم جولييت واسمى على عنايتك الكريمة بأمرنا ، وأسأل الله أن يجزيك عنا خير الجزاء

ثم نهض مستأذنا فى الانصراف ، فودعه الحـاكم بمثل ما استقبله به من الاحتفاء والتكريم

* * *

لم يستطع روميو صبرا على فراق جولييت ، فما وافت الساعة الثانية بعد منتصف الليلة التالية حتى كان فى طريقه الى شرفتها ، وكانت هى تتوقع قدومه فى تلك الساعة ، ففتحت النافذة المؤدية الى

الشرفة وأطلت منها على أدنى السور القائم فاذا هو هناك يلوح لها بيده. ثم يتسلقه كعادته !

وعجبت لارتجاف يده وامتقاع وجهه وهو يلثم يدها ، ثم عرفت السبب حين ركع بين يديها وراح يروى لها تفصيل مقابلته حاكم المدينة فى الصباح ، وما وعده به من السعى فى سبيل اتمـــام زواجهما على الا يلتقيا علانية أو خفية حتى تظهر نتيجة ذلك السعى !

وارتجفت جولييت بدورها ، وقالت له ويدها تربت شعره :

ـ كيف يكون هذا ؟ .. كيف لا نلتقى ؟ والى متى ؟

فتنهد ونظر اليها فى حيرة قائلا :

ـ هذه ارادته ، وقـــد أكد لى أن ذلك لصالحنا قبـــل كل شىء ، وأن فى استطاعتنا أن نصبر مادام كل منا واثقا من حب الآخر واخلاصه وبقائه على العهد !

فقالت له : « لكننا لانلتقى الا خفية · فأى شىء فى هذا ؟! »

فقال : « حاولت أن أقنعه بذلك ، لكنه أصر على وجهة نظره ، ولم يسعنى بعد أن لمست عطفه علينا ورغبته الصادقة فى معاونتنا الا أن أعده بأن نتبع نصيحته ! »

فتنهدت جولييت ونظرت اليه والحسرة تملأ جوانحها قائلة :
ـ أذن .. يجب أن نمتنع عن التلاقى بعد الآن . ماأقسى هذا أيها الحبيب !

فتكلف روميو الابتسام تشجيعا لها وقال :

لقد وعدنى الســـــيد برتولوميو بألا يطـول أنتظارنا .. فصبرا يا حبيبتى وكل آت قريب !

فأطرقت هنيهة مفكرة فى الأمر ، ثم قالت له :

ـ لعل الحكمة فيما رآه الحاكم الطيب القلب ، وما دمت أنت قد وعدته بأن نصبر ، فلا مفر من الصبر مهما يكن قاسيا مريرا !

ولمـــا حان موعد انصرافه ، نهض متثاقلا وأمسك يدها بين يديه بعض الوقت وهو ينظر فى عينيها صامتا ، ثم طبع على أناملها قبلة حارة طويلة ، وتدحرجت بجانبها دمعة لم يستطع امســـاكها ، فلم تستطع جولييت امتلاك عواطفها المهتاجة وشهقت بالبكاء . ثم افترقا وكل منهما يبتسم ليشجع الآخر بينما الدموع تملأ خديهما ، وقلبـــاهما يلتهبان خشية أن يطول الفراق !

***

رسم السيد برتولوميو ديللا سكالا خطة محكمة لانجاز ما وعد به من السعى لاتمام زواج الحبيبين روميو وجولييت

وبدأ خطته بزيارة كل من السيد كابلليتى والسيد مونتيسكى عدة

مرات ، دون أن يصرح لأحد منهما بالفرض من زيارته ، مكتفيا بالاشارة الى رغبته الشديدة فى أن يتم اتحاد أهل فيرونا ، وأن يحل الوئام بينهم محل الخصام ، ليتسنى لهم التعاون على ما فيه صـالحهم وصالح المدينة العام

وحرص خلال ذلك على محاولة اقناع كل من النبيلين بأن خير وسيلة الى اتمام ذلك الاتحاد والى ضمان استقراره واستمراره هي أن ترتبـط الأسرتان الـكبيرتان فى المدينـة ، وهما أسرة كابلليتى وأسرة مونتيكي ، برباط مقدس يبقى على مر الأيام ، ويمحو ذكريات الخصومة الماضية من سجل المستقبل !

وكان الحاكم الطيب القلب يتوقع أن تبدو من النبيلين أو أحدهما اشارة الى استعداده لتوثيق العلاقات الودية بين الأسرتين عن طـريق المصاهرة ، ولاسيما أن العادة جرت فى ذلك العهد بأن تتصاهر الأسرات الكبيرة توثيقا للروابط بينها . فلما تكررت زيارته لهما دون أن يحدث ما توقعه . دعاهما معا الى مجلسه فى قصره ذات يوم ، ثم طرق باب الأمر من جديد وقال لهما :

ـ الا يوجد فى أسرتيكما فتى وفتاة يمكن أن يضحيا بقلبيهما فى سبيل مصلحة الأسرتين ومصلحة المدينـة كلها ، فنحتفل بزواجهما احتفالا عاما ، يكون فاتحة لعهد جديد سعيد ؟

ولم يجب أحد من عميـدى الأسرتين عن سؤال الحاكم ، ممـا اضطره الى اعادة السؤال ، مع الافاضة فى بيان الفوائد الجليلة التى تترتب على مثل ذلك الزواج

وهنا قال السيد مونتيكي :

ـ ليس لى سوى ولد واحد ، ولكنى على يقين من حرصه على تقاليد الأسرة وتشبثه بها ، فمن المستحيل أن يستجيب لهذه الرغبة !

وقال السيد كابلليتى على أثر ذلك :

ـ اننى أقدر هذا الاقتراح كل التقدير ، غير أنى كما يعلم الجميع ليس لى غير ابنة واحدة ما زالت دون سن الزواج ، فلا سـبيل الى التفكير فى زواجها الا بعد سنين !

ولم ييأس السيد برتو لوميو برغم ذلك ، فاستمرت زيارته لكل من النبيلين ، ودعوته اياهما الى مجلسه . ليلح عليهما فى وجوب التفكير جديا فى أمر ذلك الزواج لمصلحة الأسرتين والمدينة

وكان روميو يتردد الى قصر الحاكم خلال ذلك ، ليقف منه على ما تم فى الأمر ، ثم يغادر القصر قلقا حائرا كما دخله ، وكلما لاحظ الحاكم عليه شدة الملل والضجر ، شجعه قائلا :

ـ رويدك يا روميو ، واصبر فكل آت قريب !

***

واستمرت الحال على هذا المنوال ثلاثة أشهر ، نفد فيها صبر

روميو ، وأدركه اليأس من نجاح مساعي الحاكم ، فذهب ليقابله فى قصره آخر مرة ويصرح له بأنه لم يعد يستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، لكنه فوجىء بأن الحاكم طريح الفراش يعاني مرضا خطيرا منذ ثلاثة أيام . وعلم من الاطباء الذين دعوا من البندقية وكريمونا لمعالجته أن ليس هناك أمل فى شفائه !

وفى اليوم التالى ، أذيع فى المدينة نعى حاكمها الحازم الطيب القلب المحب للسلام ، فجزع لفقده كل أهليها على اختلافهم . ثم نقل جثمانه الى كنيسة سانت ماريا الأثرية ليلا فى ضوء المشاعل لشدة الحر بالنهار ، ومشى خلف نعشه كل النبلاء والنبيلات ورجال الاكليروس وحملة الشموع والفنانون وجماهير لا يحصى عددها من الفقراء والمساكين . وكان الجميع يبكونه من قلوبهم ويذكرون عهده بكل خير

والحق أن هذا الحاكم كان على عكس معاصريه ، حكام العصور الوسطى ، يبغض الاستبداد والأنانية ، كما كان يغدق العطايا والهبات على كل قصاده من المحتاجين ، وقلما مضى يوم دون أن يتوجه الى الكنيسة للصلاة والتضرع الى الله أن يؤلف بين قلوب المتنازعين من أهل المدينة ، ويوفقهم الى ما فيه خيرهم واطمئنانهم وسعادتهم . ومن هنا حزن عليه النبلاء جميعا لتوخيه العدل فى معاملتهم سواء أكانوا مثله من حزب الامبراطورين أم كانوا من حزب البابويين. وحزن عليه رجال الدين لشدة ورعه وتقواه ولأنه كان يجلهم ويحميهم من كل سوء وعدوان . كما حزنت عليه الطبقة الوسطى ومثلها الفقراء والضعفاء لما اشتهر به من حميد السجايا ، والعطف على المرضى والعاجزين عن العمل والبائسين ، والانتصاف لهم من الأقوياء الطغاة والأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها الا فى سبيل الترفيه عن أنفسهم وحدهم وبعدهم الطوفان !

ولا شك فى أن روميو وجولييت كانا أشد أهل فيرونا حزنا على حاكمها الذى تركزت آمالهما فى مساعيه لأجلهما لدى أسرتيهما الكبيرتين!

الفصل السادس

غياب وعودة

رومیو فی البندقیة

استولت الكآبة على روميو بعد خيبة آماله بموت السيد برتو لوميو سكالا ، وانقطع بقية الصيف وطول الخريف عن ممارسة الألعاب الرياضية والاشتراك مع زملائه من النبلاء الشبان فى مختلف المباريات التى كانت أهم ما يشغل أمثالهم فى ذلك العصر

وجزع السيد مونتيكى لهذا التغيير الفجائى فى حياة ولده الوحيد ، وزاد فى قلقه أن صحة روميو كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم، وأنه كثيرا ما يغادر القصر ليلا ليهيم على وجهه فى طرقات المدينة ولا يعود الا فى الصباح حيث يعتكف فى غرفته ولا يكاد يغادرها طول النهار ، عزوفا عن الطعام والشراب

وظن الأب الحزين أول الأمر أن ابنه وقع فى حبائل الشيطان واستطاعت احدى غانيات المدينة أن تعبث بقلبه ولبه وتجره الى الطريق غير المستقيم . ولكن هذا الظن ما لبث أن تبدد حين علم من خدم القصر وغيرهم أن روميو ما زال كالعهد به تقيا نقيا يؤدى الصلوات ويحرص كل الحرص على كرامته وكرامة أسرته ، وقد بلغ من طهره وتقواه أنه امتنع عن التردد الى مجلس الفاتنة روزالندا منذ أشهر ، بعد أن كان يمضى سهراته هناك مع من يضمهم مجلسها من النبلاء والفنانين !

على أن حالة روميو بقيت برغم ذلك تبعث القلق والحيرة والأسى فى نفس أبيه . وبقى هذا يتساءل عن الاسباب التى أدت الى ذلك التحول العجيب فى طباع روميو ، دون أن يهتدى الى جواب معقول

وقالت له زوجته يوما وقد لاحظت عليه شدة اهتمامه بهذا الأمر:

ـ لماذا تشغل نفسك بهذه الوساوس والأوهام ؟ .. أن روميو الآن فى سن تسمح له بأن يتصرف بملء أرادته دون حاجة الى وضعه تحت وصايتك ، ومن حقه أن يعيش كما يحلو له ، وما أظن أن هذه الحالة التى طرأت عليه الا سحابة صيف تنقشع عما قريب

ثم سألته : « هل سمعت بأنه اجترح ذنبا أو اقترف خطيئة ؟ » . فلما أجابها بأنه لم يسمع شيئا من ذلك قالت له محتدة :

ـ اذن .. دعه وشأنه ، وأرح نفسك من هذا العناء الذى لا طائل تحته !

فقال السيد مونتيكى وهو يهز رأسه حسرة وأسفا :

ـ أهذا مبلغ حبك لوحيدنا واهتمامك بأمر مستقبله ؟

فقالت له : « ان الحاحك فى التساؤل عن أسباب تغيره وانطوائه على نفسه ليس من الحكمة فى شىء . وما دام أن هذه الحالة لم يترتب عليها الا عزوفه عن المبارزات والمباريات التى هى أشد خطرا على حياته ، فلا داعى البتة لكل هذا القلق والحزن »

وسكت السيد مونتيكى لا عن اقتناع برأى زوجته ، ولكن لعلمه بأنها لا يمكن أن تنزل عن وجهة نظرها الخاصة فى أى شىء . ومضت الأيام بعد ذلك وهو لا يفتأ يفكر فى أمر وحيده ، ويجهد نفسه لايجاد مخرج له من تلك العزلة الكئيبة التى أثرت فى صحته وأذبلت شبابه وجماله وكادت تسلكه فى عداد المخبولين ، وان كانت والدته لا تراها كذلك

* * *

وأقبل الشتاء فهبت على فيرونا عواصف ثلجية شديدة ، واكتست الطرقات والأسطح بطبقة بيضاء ناصعة . واضطر روميو الى العدول عن الجولات الليلية التى تعود القيام بها ، ولم يبرح غرفته طيلة الايام الثمانية التى استمر فيها اشتداد العاصفة

وتحسنت صحته قليلا خلال هذه الايام ، ولكن أباه بقى يتألم من أجله ، ولا يملك عواطفه فتبلل الدموع خديه ولحيته كلما وصلت الى سمعه فى القصر ضجة الفتيان والفتيات الذين يمارسون رياضة الانزلاق على الجليد فى الطرقات وكلهم فى مرح وابتهاج ، فى حين قبع روميو ولده الحبيب بجانب النار الموقدة للتدفئة فى غرفته الخاصة وكأنه شيخ عجوز حطمته الايام وأوهنت قواه !

وكان يعلم أن مركوتشيو صديق مخلص لروميو ، وأنه وحده الذى يزوره ويتحدث معه ، فخلا اليه يوما وأخذ يحاول استدراجه فى الحديث للوقوف منه على ما عسى أن يكون عنده من معلومات تلقى الضوء على حالة روميو . ولكن مركوتشيو كان أذكى وأشد اخلاصا لصديقه الحميم من أن يكشف لأبيه عن شىء مما يعلمه من غرامه اليائس المضنى بجولييت ابنة السيد كابلليتى !

ورأى السيد مونتيكى أخيرا أن يهيىء لروميو رحلة الى منطقة بعيدة من فيرونا ، لعل فى ذلك ما يعاونه على تجديد قواه ، ويرد اليه حياة المرح واللهو والنشاط . ثم علم أن قافلة من تجار المدينة تتأهب للسفر الى البندقية فى أوائل الربيع ، فصح عزمه على اغتنام هذه الفرصة والحاق روميو بالقافلة ، وسرعان ما خلا اليه وجلس يتحدث معه فى شئون مختلفة ، ثم سأله فجأة :

ــ ألا تحب يا ولدى العزيز أن تقوم برحلة لطيفة الى البندقية ؟

فبدت الدهشة فى وجه روميو ، وقال له :

ــ رحلة الى البندقية ؟ .. وما الداعى الى ذلك ؟

فقال السيد مونتيكى وهو يبتسم متلطفا :

ــ انها فرصة يتيح لك انتهازها أن تمتع بصرك بمناظر جديدة ، وأن تختلط بأناس غير من تعودت الاختلاط بهم فى فيرونا

فمط روميو شفته السفلى وقال :
ـ لست أشعر بحاجة الى شيء من ذلك !
فعاد أبوه يقول له :

ـ ان هذا لايمنع أنك ستستفيد كثيرا من هذه الرحلة ، وليس بخفى عليك أن تغيير الهواء وحده مما ينعش الجسم والنفس ، عدا ما فى الاختلاط بالغرباء من تنمية لثروة التجارب والمعلومات المفيدة فى الحياة

فنظر روميو الى أبيه فى شيء من الذهول ، ثم قال :
ـ هذا حق يا أبى العزيز ، ولكنى لا أعرف فى البندقية أحدا ؛ لأنى لم اغادر فيرونا فى رحلة بعيدة مثل هذه من قبل . ولهذا أرى أن بقائى هنا أكثر فائدة لى !

ولم ييأس السيد مونتيكى ، ومضى يتلطف فى الحديث مع روميو ، ويصف له باسهاب فخامة مدينة البندقية ، وقنواتها التى تقوم مقـــام الشوارع فى المدن الاخرى وتحفل بزوارق العابرين والعابرات ، عدا ما بها من قصور جميلة والوان مختلفة للتسلية ، بوصفها مدينة نصف تركية ونصف أوربية ، ولذلك يجتمع فيها أروع مناظر الشرق والغرب

ولما رأى أن وصفه أهاج فى نفس روميـــــو حب الاستطلاع ، أخذ يضرب له على تلك النغمة ، ويلح على ســـمعه بمختلف المغـــريات والمشوقات ، الى أن ظهر الاقتناع فى وجهه ، فأطرق هنيهة مفكرا ثم قال لأبيه :

ـ ان وصفك الجميل للبندقية جعلنى أشتاق الى مشاهدتها ، وأنا أشكر لك يا أبى العزيز شدة اهتمامك بأمرى ورغبتك الكريمة فى الترفيه عنى ، ولكنى أخشى ألا تحتمل صحتى المعتلة الآن مشاق الرحلة الى هناك ، ولهذا يحسن تأجيلها الى فرصة أخرى

واكتفى السيد مونتيكى بما وفق اليه من نجاح فى تلك الجلسة ، وفارق روميو على أن يعاود الحديث معه فى ذلك الشأن بعد حين

وكان روميو قد عاد الى جولاته الليلية التى لا يعلم أحد أين تمضى به خلالها قدماه ، وقد ذبلت وجنتاه ، وانطفأ بريق عينيه ، وصار يعاف اللحوم التى تقـــدم له على المائدة ، ولا يكاد يقبل على شيء من ألوان الشراب التى كان يميل اليها من قبل

وحمل هذا اباه على الالحاح فى محاولة اقناعه بالسفر الى البندقية مع القافلة الذاهبة اليها . وشد ماكان سروره واغتباطه اذ تكللت محاولاته هذه بالنجاح ، فوافق روميو على القيام بتلك الرحلة ، وشرع يعد حقائب السفر ، ويختار من يأنس اليهم من الحراس والخدم لمصاحبته فيها

وبعد أيام خرجت القافلة من فيرونا وبينها روميو ومرافقوه تحملهم ثلاث عـــربات ومعهم كل ما يحتـــاجون اليه من المعـــدات . ولم يكن يبدو عليه شيء من الابتهاج الذى غمر وجوه بقية أفراد القـــافلة والشبان الذين صحبوها للتنزه والاستجمام . ولكن أباه كان يرجو أن تزايله تلك الكآبة بعد أن يمعن فى الرحلة وتقع عيناه على ما فى البندقية من مظاهر جميلة رائعة !

خطيب غير مرغوب فيه

كان روميو وجولييت بعد موت حاكم فيرونا قد تحللا من العهد الذى ارتبطا به ازاء مساعيه لاتمام زواجهما ، فعادا الى التلاقى والمناجاة خفية فى شرفة غرفتها ، كما كان شأنهما قبل ذاك ٠

والواقع أن فشــل تلك المســاعى لم يزدهمــا الا تفانيــا فى الحب والاخلاص ، ولكن مشكلتهما كانت تزداد تعقيدا بمضى الايام ، اذ لم يكن فى استطاعتهما أن يخرجا على تقاليد أسرتيهما النبيلتين الكبيرتين ، وفى الوقت نفسه كان من المستحيل عليهما أن يستعينا على حل تلك المشكلة بأى انسان آخر بعد ذلك الحاكم الطيب القلب ، مخافة افتضاح أمرهما ، وما يترتب عليه من تفاقم العداوة بين أسرتيهما وبين أعوان هذه وتلك من حزبى الامبراطوريين والبابويين ٠

ومن هنا ساءت صحة الحبيبين ، وأخذ شبابهما الناضر فى الذبول ، وانطوى كل منهما على نفسه ، زاهدا فى الحياة وكل ما فيها ٠

وكانت السيدة كابلليتى أكثر عطفا وحنانا على جولييت من أبيها ، بعكس روميو الذى كانت أمه أقل عطفا وحنانا عليه من أبيه ٠ وعلى هذا كان لتبــدل حال جولييت من الاشراق والمرح الى التجهم والانزواء أكبر الأثر فى نفس والدتها ، فأخذت تبذل كل ما فى وسعها لانقاذها من هذه الحالة المحزنة المؤلمة ، ولــكن محاولاتهــا كلهــا لم تسفر عن أية نتيجة مرضية ٠

أما الســيد كابلليتى ، فلم يعر تغير حال ابنتــه اهتماما كبيرا أول الامر ، وكان يقول لزوجته كلما خاطبته فى هذا الشأن :

ــ هذا مرض بسيط لا يلبث قليلا حتى يزول !

ولما طال مرض جولييت واستعصى علاجه ، جاء السيد كابلليتى الى زوجته يوما متهلل الوجه بادى الغبطة وقال لها :

ــ لقد اهتديت الى أحسن علاج لمرض جولييت !

ثم أخذ يروى لها وهو يهتز طربا وحبورا أن جولييت قد خطبها اليه السيد « بياترو رونزولونى » صــاحب الضــياع والمزارع الواســعة فى ضواحى فيرونا وصاحب القصر الانيق القائم وسط تلك المزارع بين الحدائق الغناء الحافلة بالنباتات النادرة والازاهير الجميلة العاطرة وحظائر الخيل وأقفاص الوحوش العجيبة التى اصطادها فى رحلاته البعيدة الجريئة التى يتحدث عنها الجميع معجبين !

ولم يسع السيدة كابلليتى الا أن تتلقى نبأ هذه الخطبة السعيدة بالجذل والاغتباط والشكر لله على أن وفق ابنتها العزيزة الى زوج نبيل ثرى مقدام !

وقامت من فورها فتوجهت الى غرفة جولييت حيث وجدتها جالسة خلف النافذة المؤدية الى الشرفة ، وبصرها معلق بالافق فى ذهول ٠

ثم ابتدرتها قائلة وهى لا تملك اخفاء سرورها :

ــ ما رأيك يا جولييت ، الا ترغبين فى الزواج ؟

وبغتت الفتاة لهذا السؤال المفاجىء ونظرت الى أمها الطيبة القلب ، فوجدتها تتكلم جادة فى هذا الامر الخطير ، ولم يخف عليها ما ارتسم على وجهها وفى نظراتها من البشر والابتهاج ، فلم تشأ أن تصدم عواطفها وقالت لها فى حشمة وأدب :

ــ هذا شرف لم أحلم به بعد يا والدتى العزيزة !

وحينئذ جلست السيدة كابلليتى بجانب ابنتها ، وأخذت تربت شعرها وكتفيها بيدها قائلة :

ــ ان فتيات كثيرات أقل منك سنا قد تزوجن وانجبن بضعة أولاد ، ومن الخير لك اذن أن تفكرى فى هذا الامر ٠

ثم ضحكت متلطفة وواصلت كلامها فقالت :

ــ على أنى أنصح لك منذ الآن بأن تكتفى بانجاب ولدين اثنين فقط !

ولم يفلح تلطف السيدة كابلليتى وتفكهها فى ازالة الكآبة المرتسمة على جبين جولييت ، واكتفت الفتاة الحزينة المؤدبة بأن قالت :

ــ لا بأس من التفكير فى هذا الامر يا أماه ، على أنى أرجو أن تتركى لى فسحة كافية من الوقت للتفكير ، وألا تخاطبينى فى شأنه الا بعد أن انتهى من ذلك وأصرح لك بأنى سئمت حياة العزوبة !

وكانت تتكلم بصوت مرتجف ينم عن الاعياء الشديد ، وقد وضعت يدها على قلبها الذى أثيرت كوامن لواعجه فاشتد خفقانه٠ فلم تشأ والدتها أن تثقل عليها بالالحاح فى ذلك الامر ، وتركتها لتستريح فى فراشها قليلا وهى تقول لها :

ــ لا تجزعى يا عزيزتى لمثل هذا المرض البسيط ، فعما قريب يتم شفاؤك وتستردين عافيتك كاملة غير منقوصة ٠ وانى أبشرك منذ الآن بأن زواجك سيكون سعيدا موفقا كل السعادة والتوفيق !

وما كادت تغادر الغرفة حتى ارتمت جولييت فوق سريرها ، ثم وضعت وجهها بين كفيها وأخذت تجهش بالبكاء !

وكان روميو قد أرسل اليها من البندقية ثلاثة رسل : أحدهم

قسيس ، والثانى تاجر ، والثالث حامل سلاح · وقد اتصلوا بهــا خفية بوساطة أوزيبيا مرضعها وابلغوها تحياته وتمنياته لها بالصحة والهناءة ، ولكن أحدا منهم لم ينبئها بموعد رجوعه الى فيرونا ، لأنه لم يكن قد حدد هذا الموعد بعد · وأشد ماكانت تخشاه أن يكون أبوها قد دبر أمر زواجها بأحد من نبلاء حزبه دون أن تعلم بذلك ، وهنا تضطر الى مواجهة اجراءات الخطبة وما اليها قبل أن يعود روميو من البندقية ويبحث معها أمر هذه المشكلة الجديدة !

***

كان السيد « بياترو رونزولونى » الذى خطب جولييت الى أبيها ، فى العقد الرابع من عمره ، له ذقن مربعة بارزة تسودها لحية كثيفة ، وقد فقد احدى عينيه فى مبارزة قديمة ، لكنه يفخر بأنه يرى بعينه الواحدة الباقية خيرا مما لو كان بمائة عين ، وكانت على خديه ثلاثة ثآليل دائمة ، وبدا الصلع يكتسح شعر رأسه برغم معالجته بالغسل مرات فى اليوم ببول الخنازير طبقا لمشورة الأطباء والمجربين · ولهذا كان يضع على رأسه دائما غطاء كبيرا من الفرو ، ويحرص على أن يبدو دائما فى ثياب ثمينة ، ويعطر جسمه بنوع نادر من المسك يحتفظ معه بشيء منه أينمــا حل أو رحل !

وكان معروفا بجانب سعة أملاكه وحسن ادارته لهــا بأنه ذو طباع ونزوات غريبــة ، ولوع برحلات الصــيد واقتناص الوحوش ، واقتناء العبيد والكلاب ·

ولم تمض أيام حتى خلت السيدة كابلليتى الى ابنتها جولييت مرة أخرى وقالت لها :

ـ لقد تحدثت مع أبيك فى شــأن زواجك ، واستقر رأينا على أنه خير وسيلة الى شفائك مما أنت فيه ·

ولم تستطع جولييت أن تخفى امتعاضها واضطرابها، على أن والدتها لم تدع لها فرصة لالتماس التأجيل ، وواصلت كلامهــا فى لهجة حازمة حاسمة برغم محاولتها تكلف اللين والملاطفة ، فقالت لها :

ـ ان مصلحتك يا ابنتى هى كل غايتنا ، وقد تقدم لخطبتك نبيل عظيم الثراء ، عرف بالشجاعة والاقدام · ودعانا جميعا الى حفلة كبــيرة يقيمها بقصره الريفى الجميل الذى ســيكون قصرك فى المستقبل · وأنا واثقة بأنك حين ترينه هناك فى هذه الحفلة ستعلنين قبولك خطبته فرحة فخورة ، فليس ثمة أى شك فى أنك ستعجبين مثلنــا بشمائله ومزاياه ، وتلمسين أنه نعــم الزوج الذى تجدين معــه السعادة الدائمــة والنعيم المقيم !

وشعرت جولييت بأنها تكاد تختنق ، وبأن صدرها يئز ويغلى لشدة ما يعتمل فيه من الالم والغيظ واليأس ، فأطرقت ساكتة ريثما خفت حدة اضطرابها ، ثم نظرت الى والدتها متسائلة متعجبة وقالت لها :

ــ لماذا تتعجلون زواجي هكذا ؟! ٠٠ هــل ترون أني جاوزت سن الشباب وتخشون ألا أجد زوجا مناسبا فى الوقت المناسب ؟

فقالت لها أمها : « ليست المسألة بهذه الصــورة التى تتخيلينها ، ولكنك تعلمين أنك واحدتنا ، وان أكبر أمانينا أن تقر أعيننا برؤيتك زوجة سعيدة وأما تنجب لنا أحفادا تنشرح بهم صدورنا ٠ هذا الى أن النبــيل الذى أعرب عن رغبتــه فى الزواج بك اجتمعت فى شخصه مزايا قلما تجتمع لانسان ! »

فقــالت جولييت : « انى لاشــكر لك ولابى شــدة اهتمامكما بأمر مستقبلي وسعادتى ، ولكن أليس من الجــائز أن يكون ذلك النبيل الثرى الذى وقع عليه اختياركما لا يوافق باطنه ظاهره ؟ »

فحدجتها أمها بنظرة عتاب وقالت لها :

ــ كلا ٠٠ ان أباك يعرفه حق المعرفة ، وقد صرح لى بأنه الى ثرائه الواسع وشجاعته الفائقة خليق بأن تفخر الاسرة بمصاهرته ٠ وهل تظنين أننا كنا نوافق على خطبته لك الا بعد التحقق من أنه كفؤ لها ؟ »

وهنا أدركت جولييت أن ليس هناك فائدة من الجدال ، فسكتت على مضض وقلبها يذوب أسى ويأســا ٠ وظنت أمها أن سكوتهــا دليل على قبولها ورضاها فنهضت وقبلتها مسرورة ، ثم تركتها موصية اياها بأن تستعد لحضور حفلة خطيبها العظيم ، ونبأتها باسمه فلم تزدها به الا جهلا ومقتا وتحقيرا !

وذهبت جولييت الى قصر الســيد بياترو رونزولونى فى ضواحى فيرونا ، فى موكب كبير ضم والديها وجميع أفراد أسرة كابلليتى وبعض المقربين من الأعوان والأنصار ٠ كانت لفرط ذهولها وحيرتها وكآبتهــا لا تكاد تقوى على حفظ توازنها فوق الجواد الذى ركبته ، كما أنها كانت تجاهد بكل ما بقى لها من قوة حتى لا تغلبها عواطفها وتنفجر باكية أمام الحاضرين والحاضرات !

وكان القصر جميلا ، شيد على ربوة عالية ، وهو كله مبنى بالقرميد الاحمر ، وتحيط به حدائق وبســاتين أبدع تنسيقها وحفلت بكل أنواع الفاكهة وأشجار الزينة والورود والزهور ، وقد غرست فى صفوف بعضها فوق بعض ، وتخللتها أحواض ونوافير من المرمر المزخرف المحلى بالتماثيل ٠

وخف صــاحب القصر وكبــار آله وأعوانه لاســتقبال موكب آل كابلليتى مبــالغين فى الترحيب بهم ، وطافوا بهم فى الطــريق الى قاعة المأدبة بحدائق الزهور النادرة داخل القصر ، وحظائر الخيل والــكلاب ، وأقفاص الاســود والفهود والدببة والذئاب والثعــالب والقرود والظباء والايائل وغيرها من الوحوش والحيوانات التى اقتنصها صاحب القصر فى رحلاته أو استوردها لحسابه من مختلف الانحاء ٠

وكانت بعض هذه الاقفاص تحوى رجالا ونساء من الزنوج وغيرهم

من سكان الغابات والاحراش ومجاهل الهند والصين • فوقف السيد كابلليتى ومن معه طويلاأمام هذه الاقفاص يتفرجون علىمن فيها ويتبادلون عبارات العجب والاعجاب •

وقالت جولييت لنفسها بعد اذ رأت خطيبها المنتظر صاحب القصر ، ثم هؤلاء الأرقاء المساكين الجالسين القرفصاء فى تلك الاقفاص :

ـ لو أن هناك انصافا فى هذه الدنيا لوضع ذلك النبيل الاعور الثقيل الظل فى قفص من هذه الاقفاص !

واستمر المدعوون بعد ذلك أكثر من ساعتين جالسين الى الموائد التى حفلت بألوان عديدة شهية من الطعام ، ومثلها من أجود أنواع الشراب ، وقد توفر على خدمتهم عشرات من الخدم والحشم ، وجلب لتسليتهم والترفيه عنهم عدد كبير من الحواة والمهرجين والبهلوانات والشعراء والمحدثين والموسيقيين •

وحرص صاحب القصر على أن يختص السيد كابلليتى وزوجته وابنته بمزيد من تحياته ، فكانت عباراته تصل الى سمع جولييت وكأنها فحيح الافاعى ، وحرصت من جانبها على أن تتحاشى نظراته اليها اذ شعرت منذ تلاقت نظراتهما لاول مرة بأن وجهه ليس فيه ما يغريها بغير صفعه • وعجبت من أمر أبويها كيف حسن فى عينيهما مثل هذا المخلوق الغريب الهيئة والطباع ؟!

ولما انتهت المأدبة ، انتقل الحاضرون والحاضرات الى قاعة الاستقبال الفسيحة فاحتشدوا فيها ، وتوسطهم السيد كابلليتى وزوجته وابنته ، وأمامهم السيد بياترو رونزولونى صاحب القصر ، وكاهنه الخاص •

وفى حركة رتيبة وقور التفت السيد كابلليتى الى جولييت وأشار بيده الى النبيل صاحب القصر وقال لها فى صوت أراد أن يكون وقورا أيضا :

ـ هذا هو الزوج الذى اخترناه لك •• ولا شك فى أنك ستحرصين دائما على أن تكونى موضع حبه واحترامه • وبذلك تعيشان سعيدين باستمرار •

وطفح وجه السيد رونزولونى بالمسرة والزهو، بينما وقفت جولييت شامخة الرأس معقدة الجبين وقالت لابيها :

ـ انى ليسرنى أن أكون خاضعة لارادة أبى العزيز فى كل شىء ، كما أنى أقدر نصائحه الغالية الحكيمة كل التقدير ، ولكنى لم أفرغ من التفكير فى هذه المسألة ، وليس من الممكن أن أبت فيها برأى صحيح بمثل هذه السرعة •

وبغت السيد كابلليتى وزوجته ، وجحظت عيون المدعوين والمدعوات وفغروا أفواههم دهشة ، فى حين تصبب العرق باردا من وجه السيد رونزولونى ثم انتفخت أوداجه فجأة وقال متظاهرا بعدم الاكتراث :

ـ حسننا يا سادة !٠٠ يمكن أن تستوضحوها رأيها فيما بعد !

***

وفى أثنــاء عودة آل كابلليتى الى قصرهم فاجأت جولييت أباها مرة أخرى اذ قالت له فى صراحة :

ـ أى زوج هذا الذى اخترتموه لى ؟ اننى أوثر الموت على أن أتزوجه !
وجذب السيد كابلليتى عنان جواده غاضباوحدج ابنته بنظرة قاسية ملتهبة ، وصاح بها قائلا وفى لهجته أثر افراطه فى الشراب :

ـ ماذا تقولين أيتها المتمردة ؟!.. ألى هذا الحد تخالفين ارادتى ؟!.. كلا !٠٠ اننى لا يمكن أن أســمح لك بهــذا ٠ ولا مناص لك من الاذعان والخضوع !

واستمرت تشهق بالبكاء بينما أبوها يرغى ويزبد ويتهدد ويتوعد ، حتى وصلوا الى القصر ، وهمت جولييت بالصعود الى غرفتها ، ولكن أمها استوقفتها أمام أبيها وقالت لها :

ـ لا ينبــغى لك أن تغضبى أباك يا جولييت ، تعــالى يا بنيتى العزيزة وكونى عند حسن ظننا بك وصرحى لابيك بأنك لا تخالفين ارادته وأنك قد قبلت الزواج بذلك السيد العظيم !

وقالت لها جولييت وهى ما زالت ترتعد :

ـ ان أبى يعلم يقينا أنى أحبه وأجله وأطيعه ، ولــكننى لا أستطيع أن اتزوج بأى أحد إلا بعد أن اشعر بأننى أحبــه بكل قلبى ٠ فاذا كنتم مطمئنين الى أن ذلك السيد جدير بالحب ، فاتركوا لنا فسحة من الوقت ليزداد كل منا معرفة بالآخر ، ثم ليكن الزواج بعد ذلك !

وعاد السيد كابلليتى يصرخ فى وجه جولييت قائلا :

ـ كلا !٠ كلا ! محال أن أقبل منك أى محاولة للمطل والتسويف !٠ ان السيد رونزولونى زوج يشرف أسرتنا ، انه من أنصار البابا ، ولم يتخل فى أى يوم عن مناصرة حزبنا بجهده وماله ٠

وعادت جولييت الى البــكاء والتوسل ، ولان لها قلب أمهــا فهمت باقناع أبيها بتأجيل البت فى هذا الامر حتى الصباح ، غير أن الخمر كانت قد لعبت برأسه وبلغت ثورته منتهاها فوقف يزمجر ويدمدم ، ثم التفت الى بعض الحراس الواقفين وصاح بهم قائلا وهو يشمر عن ذراعيه :

ـ هاتوا هذه البنت الوقحة المتمردة ٠٠ هاتوها !٠٠ انى أشعر بأن يدى تريد أن تضرب !٠٠ ان الله لم يكن راضيا عنا اذ قدر علينا أن تكون هذه المجرمة كل ذريتنــا !٠٠ هاتوها ٠٠ هاتوها ٠٠ ان أسرة كابلليتى العظيمة لن ترضى أبدا بأن تكون سمعتها وكرامتها مضغة فى الافواه !

ثم خطا متجها الى حيث كانت جولييت واقفة تبكى وتنتحب ، ورفع يده ليهوى بها على وجهها ، ولكن أمهــا أمسكت ذراعه بكل قوتها ، ثم

اجتذبته الى اقصى القاعة وأجلسته على مقعد هناك حيث أخذت تهدىء من أعصابه الثائرة قائلة :

ـ هون عليك يا عزيزى ، ليس هناك قط ما يدعو الى مثل هذا ٠٠ وأنا واثقة من أنها لن تلبث قليلا حتى تثوب الى رشدها وتعلن راضية مغتبطة قبول ما أردته لها ٠ فهيا ٠٠ امض الى غرفتك لتستريح ولا تعكر دمك ، فلن يكون الا ما تريد !

وما زالت به حتى أنهضته ودفعت به الى خارج القاعة ، حيث مضى الى غرفته وهو يسب ويلعن ٠ ثم عادت الى جولييت فأخذت تهدىء ثائرتها وتجفف دموعها ولم تتركها حتى ذهب عنها الروع وصعدت الى غرفتها وبدلت ثيابها ، ثم تمددت فى فراشها تلتمس الراحة والهدوء ٠

الحبيب يعود

لزمت جولييت غرفتها في اليوم التالى محتجة كعادتها بأنها فى حاجة الى الراحة والاستجمام • وفيما كانت أمها تفكر في وسيلة تقنعها بها وتحملها على قبول الزواج بالسيد رونزولونى ، جاءتها أوزيبيا مرضع جولييت وقالت لها :

ـ بالباب يا سيدتى بائع جوال من البندقية معه سلع طريفة مختلفة يرغب فى عرضها •

وهمست السيدة كابلليتى بأن تأمر أوزيبيا بصرف ذلك البائع ، ثم لاح لها أن جولييت قد تجد تسلية في مشاهدة ما معه من السلع ، فأذنت فى ادخاله الى ساحة القصر • ثم سارعت الى غرفة جولييت ، واستطاعت أن تقنعها بالنزول معها للتفرج على السلع التى جاء بها ذلك البائع من البندقية •

والواقع أن اسم البندقية حيث يوجد روميو كان هو سر اقناع جولييت بمغادرة غرفتها • وهناك فى ساحة القصر التى تلى سوره الخارجى جلست هى وأمها على مقعدين من الحجر منحوتين فى السور نفسه ، وأخذ البائع البندقى ـ بعد أن حياهما فى اجلال ـ يخرج من صناديقه ما اشتملت عليه من السلع الثمينة النادرة • وكان ذا لحية كثيفة وقد لف رأسه وجبينه بقطعة من القماش • فلم يعد يبدو من وجهه الاسمر الذى لوحه وهج الشمس وهواء البحر الا عيناه الواسعتان الصافيتان ، وقد هاجت كوامن أشجان جولييت حين رأتهما ، اذ كانتا شبيهتين بعينى روميو ، ولهذا حرصت على ألا تعاود النظر اليهما ، وشغلت نفسها بمشاهدة السلع التى شرع البائع يعرضها ويثرثر على عادة أمثاله من الباعة مدللا على جودتها وطرافتها بما عانى فى سبيل جلبها من الاخطار العديدة فى بحار الشمال المليئة بالقرصان، وفى الصحارى المحرقة والغابات ذات الوحوش والحيات، علاوة على عصابات غير المؤمنين •

ثم اقترب البائع من جولييت خلال اشتغال والدتها بفحص بعض السلع ، وهمس اليها قائلا :

ـ جولييت •• لا تنزعجى •• اننى أنا روميو !

ثم ابتسم وهو ينظر الى عينيها والدهشة مرتسمة فيهما ، وأومأ اليها محذرا ، وتراجع عقب ذلك الى حيث كانت والدتها تقلب سلعة فى يدها واستأنف حديثه عن جودة السلع ونفاستها ، قائلا :

ـ معى أيضا أحجار كريمة ولآلئ نادرة مستخرجة من البحر الأسود ومعى أسلحة وتحف وأدوات للزينة لا تقدر بمال ٠

ثم فتح آخر حقيبة معه وأخرج منها عقودا وأقراطا وحليا مختلفة الاحجام والالوان ، وأعطى السيدة كابلليتى بعضها فأخذت تتأملها في عجب واعجاب ، بينما اقترب مرة أخرى من جوليت وناولها حلية عجيبة قائلا لها :

ـ ألم تعرفينى بعد ؟٠٠ لا تضطربى هكذا وتجلدى ٠٠ ها قد تلاقينا أخيرا وسنتلاقى ٠٠ فلا تخشى أى شىء !

واستطاعت الفتاة أن تتغلب على دهشة المفاجأة ، وسرت في جسمها قوة خفية أنعشتها وردت عليها آمالها الذاهبة ، فجلست أمام والدتها متظاهرة بفحص السلع معها ، وأخذت تختلس النظر اليه وتبادله الابتسامات من حيث لا تشعر والدتها ، ثم قالت لها أخيرا :

ـ لا شك أنها سلع جميلة طريفة يا والدتى العزيزة ، وحبذا لو كان عنده أقمشة وجواهر أخرى تصلح للعرس !

فنظرت اليها والدتها ، وقد سرها ما بدا من مرحها وانبساط أسرة وجهها ، وتحدثها عن العرس دون مضاضة ٠ وقالت لها :

ـ نعم ، حبذا ذلك يا بنيه لان ملابسك وحلاك يجب أن تكون كلها غاية في النفاسة ، لتليق بسليلة آل كابلليتى وزوجها النبيل الثرى العظيم ٠

ثم التفتت الى روميو المتنكر فى زى البائع البندقى وقالت له :

ـ حسنا ٠٠ ان حظك سعيد ولا شك ٠ وما دامت بضاعتك كلها بهذه الجودة فسنشترى كثيرا منها ، وندفع الثمن الذى ترتضيه !

الفصل السابع

عهود الحبيبين

رحلة في ضوء البرق

استيقظت جولييت فى منتصف الليلة التالية وهى تشعر بأنها استردت صحتها ونشاطها بعد أن عاد روميو ، وصار من الممكن أن يفكرا معا فى وسيلة تخرجها من ذلك المأزق الذى وقعت فيه ٠

وفيما هى تفكر فى هذا الأمر ، سمعت نقرة خفيفة على زجاج النافذة المؤدية الى الشرفة ، فحسبت أول الأمر أن فراشة كبيرة اصطدمت بالزجاج وهى تحاول الوصول الى ضوء المصباح ٠ ولكنها تحققت بعد هنيهة ان هناك حصوات يقذف بها زجاج النافذة ، فخفت اليها وفتحتها وأطلت منها فلم تتبين عيناها شيئا فى الظلام الذى كان سائدا حينذاك ٠ وكادت تغلق النافذة لتعود الى فراشها لولا أن وصل الى سمعها فى هذه اللحظة صوت يهمس باسمها عند أدنى السور ، وما لبثت قليلا حتى تحققت أنه صوت روميو ، وكان يقول لها :

ـ جولييت ٠٠ ارتدى ثوبا للخروج ، سنذهب الى شاطىء النهر لنتحدث هناك ٠٠ أسامعة أنت ؟٠٠ هاك سلما من الحرير جئت به لتهبطى بواسطته !٠٠ هيا ٠٠ لا تترددى يا عزيزتى !

وشعرت الفتاة بشىء ناعم استقر على ذراعيها المستندتين الى حاجز الشرفة ، فأجفلت ثم سمعت روميو يواصل همسه لها قائلا :

ـ هل وصل طرف السلم اليك ؟٠٠ ثبتيهفى الحاجز ، وسأتلقاك هنا بين ذراعى !

وبعد قليل كانت جولييت قد ارتدت ثوبا ثقيلا قاتما ، وأخذتتهبط من الشرفة على درجات السلم الحريرى وقلبها يخفق بشدة لفرط تأثرها٠ ولم تمض دقائق حتى كانت بين ذراعى روميو الذى تلقاها وحملها على صدره فى رفق وحنان وهى مسندة رأسها الى كتفه ٠ ثم انطلقا الى النهر القائم وراء الحقل المحيط بالقصر ، وقد ساد الظلام والسكون ، فلم يكن يسمع الا وقع خطاهما على الأعشاب ، وتهامسهما الذى اختلط بهمسانه النسيم ٠

وقالت له ويدها فى يده :

ـ ما بال السماء قد خلت من النجوم؟٠٠ انى خائفة من هذا الظلام!

فأجابها وهو يداعب بيده خدها وشعرها :

ان النجوم باقية هناك ، ونورها لا ينطفىء أبدا ٠٠ ولكن السحب

تحجبها الآن وستزول هذه السحب السوداء فتعود النجوم الى الظهور !

وعثرت فى طريقها عثرة خفيفة ، فسارع روميو الى تطويقها بساعديه ليقيل عثرتها ، وواصل كلامه فقال :

ــ لا تخافى شيئا ٠٠ ان الكون كله يبدو كأنما خلق لنا وحدنا ٠٠ فقد هجع الناس والطير والحيوانات ، وسكن كل شيء الا قلبانا !

وبدأت قطرات من المطر تتساقط على وجهيهما المتلاصقين ، فقال روميو :

ــ ها قد بدأت السحب تفرغ حمولتها ٠٠ اطمئنى يا حبيبتى ٠٠ ان هناك فوق هذه السماء الزرقاء التى تدور حولنا سماء بللوريه ناصعة تعيش فيها الملائكة والارواح السعيدة بمنأى عن الغيوم والصواعق والأمطار ٠٠ ومن فوق هذه السماء سماء أعلى وأعز وأكرم لأنها سماء الله !

وكان المطر قد ازداد ، واشتد الهواء ، ورعدت السماء وبرقت ، فشعر روميو بارتجاف جولييت وقلقها ، فخلع معطفه وادخلها معه فيه ، فازدادا التصاقا ٠ ثم لاحت لهما فى ضوء البرق شجرة كبيرة قريبة فاتجها اليها صامتين ، وهناك وقفا مستندين الى جذعها وجسماهما متلاصقان داخل المعطف السميك وقد طوق خصرها بذراعيه وطوقت عنقه بذراعيها ، وبقيا هكذا صامتين وقلباهما يتكلمان ، وقد ذهلا عن الرعد والبرق والمطر والبرد ، ولم يفيقا من ذهولهما الا وقد سكنت العاصفة وانقطع المطر وانقشعت السحب ولاحت أضواء الفجر !

وهنا غادرا مخبأهما الأمين السعيد ، وأخذا يحثان الخطى عائدين الى القصر ٠ وهو يعاونها على اجتياز العقبات التى خلفتها الأمطار فى الطريق ٠ ثم آثر أن يحملها على صدره ليسارع الى العودة بها قبل انتشار ضوء الصباح ٠ فاستسلمت له مطمئنة مغتبطة ٠ وانطلق هو بحمله فى خفة ونشاط حتى بلغ سور القصر تحت شرفتها ، فأعانها على الصعود اليها بوساطة سلمه الحريرى بعد أن صعد هو قبلها ليتلقاها ٠ ثم وقف فى الشرفة بعد فك طرف السلم المثبت بالحاجز وتمنطق به تحت معطفه ، الى أن دخلت غرفتها وأغلقت زجاج نافذتها مبتسمة له ٠ وقبل أن يفترقا ، اقترب كل منهما بوجهه من زجاج النافذة والصق به شفتيه حيث تبادلا قبلة طويلة حادة من وراء الزجاج !

وكانت هى المرة الأولى التى التقت فيها شفتا روميو وجولييت !

وبقيت جولييت فى غرفتها حتى الضحى ، وهى مازالت ثملة بنشوة السعادة التى غمرتها خلال نزهتها الليلية فى ضوء البرق مع روميو الحبيب

وكانت تحدث نفسها قائلة :

ــ ترى هل يعود فى الليلة القادمة ؟

واستمرت مستغرقة فى مثل هذا الخيال ، حتى فتح باب الغرفة ودخلت أوزيبيا مرضعها الحنون وقالت لها ووجهها يفيض بالبشر والابتهاج :

ـ سيدتى .. لقد عاد تاجر الأمس ومعه السلع الجديدة التى وعد باحضارها . وقد أمرت سيدتى والدتك بأن أجىء به اليك هنا لكى تنتقى من سلعه ماشئت استعدادا لزواجك السعيد !

وماكادت جولييت تصدق سمعها ، ولكن أوزيبيا كانت تتكلم بادية الجد ، وأردفت قائلة :

ـ انه الآن واقف بالباب فى انتظار الاذن له فى التشرف بالمثول بين يديك !

ولم تنبس جولييت بكلمة ، واكتفت بأن أومأت موافقة على ادخال البائع ، وقد لاح لها أن روميو أرسل شخصا آخر بدلا منه . وبقيت عيناها معلقتين بالباب حتى دخل البائع القادم ، فاذا هو روميو نفسه، وعلى وجهه ابتسامة حلوة لطيفة كتلك التى ارتسمت على شفتيه حين تبادلا قبلة الوداع منذ ساعات من وراء الزجاج !

وقال لها فى صوت عذب حنون :

ـ هل أدهشك انى اشتقت اليك فجئت أطفىء نار شوقى بنظرة اليك ؟

وعاودتها الدهشة لجرأته وصراحته فابتسم وقال لها :

ـ اطمئنى ياعزيزتى ، اننا وحدنا هنا ، وقد انصرفت أوزيبيا الطيبة القلب لتشرف على أعمال الخدم المشغولين بغسل الملابس وتنظيم الأثاث استعدادا لزواجك السعيد من السيد رونزولونى !

فوضعت يدها على قلبها ، وزفرت زفرة حارة ، وقالت له :

ـ أتعرفه ياروميو ؟

فابتسم مرة أخرى وقال :

ـ كيف لا أعرفه ؟.. وهل يخفى القمر ياجولييت ؟!.. ان أهل فيرونا لا حديث لهم الا عن حياة البذخ واللهو التى يحياها فى قصره الريفى البديع ، وحيواناته ووحوشه وعبيده من مختلف الاجناس والألوان !

ثم ضحك ساخرا واقترب من جولييت فوضع يده على كتفها وقال وهو يتأمل عينيها الصافيتين :

ـ ما أروع هاتين العينين !.. ولكن أين هما على روعتهما من تلك

العين الواحدة التى يؤكد السيد رونزولونى أنه يرى بها كما لو كانت مائة عين ؟!

وهنا همست جولييت قائلة له :

ـ روميو .. حبيبى روميو .. اننى لك أنت وحدك ، كما أنك لى وحدى ، ولن يستطيع أحد أن يفرق بين قلبينا اللذين وحدهما حبنا المتبادل المكين .. بالله لا تجر على لسانك ذكر ذلك المخلوق الفظ الغليظ القلب ، ودعنا الآن نستمتع بهذا اللقاء الجميل السعيد .

فتناول روميو يدها بين يديه ووضعها على قلبه وقال لها :

ـ ثقى ياعزيزتى بأن ذلك الأحمق البغيض لن ينال منك شعرة واحدة مادمت على قيد الحياة ، ولئن كانت احدى عينيه قد ذهبت فى مبارزة قديمة كما يقال ، فان حياته كلها من السهل جدا أن تذهب بها مبارزة أخرى !

ففزعت جولييت وقالت له :

ـ مبارزة ؟.. أليست هناك وسيلة أخرى أسلم عاقبة ؟

فضغط روميو يدها بقوة من حيث لا يشعر وقال :

ـ ماذا تخافين ؟.. ان كل مايدعيه من البراعة فى المبارزة لن يلبث دقيقة حتى يتبخر فى ضوء الحقيقة الواقعة ، حينما يتلاقى سيفانا !

وارتعدت الفتاة فى قبضته ، وبدا التوسل فى نظراتها وقالت :

ـ كلا ياروميو .. انك أعقل واكيس من أن تقدم على ذلك .. يجب أن يبقى حبنا سرا فيما بيننا حتى تحين الفرصة المناسبة لاعلانه .. هل نسيت ماقلته أمس عن تلك السحب السوداء التى حجبت نجوم السماء ؟ ألم تنقشع السحب ويعود النور مبددا ماساد الكون من ظلام ؟.. ان هذه المحنة التى نعانيها بسبب مابين أسرتينا من عداء لن تبقى طويلا ، ان قلبى ليحدثنى صادقا بأنها توشك ان تزول ، وحينئذ يتم اتحادنا فى العلن كما تم فى الخفاء !

فتنهد روميو ، وسكت هنيهة وقد بدا فى وجهه القلق والحيرة ، ثم انبسطت أسارير وجهه فجأة وقال مبتسما :

ـ حسنا ياجولييت .. لن ألجأ الى القوة لاقصاء رونزولونى الاعور من طريقنا ، مادامت هذه ارادتك !. انك لحكيمة عاقلة مثلما انك جميلة ظريفة . وقد يدرك باللين والحيلة ماليس يدرك بالقوة والاقدام !

***

عجب مركوتشيو اذ جاء روميو اليه ذات مساء ليدعوه الى تمضية السهرة معا ، وكان عجبه أشد حين أردف روميو فقال :

ـ ليس لدى أى فكرة عن سهرة معينة . انما يهمنى أن نجلس معا بعض الوقت لنتحدث ونتشاور !

ثم انفجر مركوتشيو ضاحكا ، وقال له وهو يربت كتفيه :

ـ أى حديث لديك أيها الفتى العاشق المستهام ؟

فقال روميو جادا :

ـ يجب أن نجد فى أقرب وقت ممكن وسيلة تكفل أن تمحى فكرة الزواج بجولييت من ذهن ذلك النبيل الأعور الثقيل !

فقال له مركوتشيو :

ـ لا شىء غير الموت يستطيع أن يجعله يسلو احلامه بها ! ..

فهز روميو كتفيه ساخرا وقال :

ـ نريد وسيلة أخرى غير الموت .. هذه ارادة جولييت نفسها !

فقال له مركوتشيو متعجبا :

ـ جولييت هى التى لا تريد له الموت ؟!.. اذن ينبغى أن نبحث عن وسيلة تمحو فكرة الزواج من ذهنها هى أيضا !

فعقص روميو حاجبيه وحدج مركوتشيو بنظرة قاسية وقال له :

ـ كلا يامركوتشيو .. كلا !.. ان جولييت فتاة نبيلة القلب صادقة الحب وفية بالعهد ، ولكنها كذلك ذات حكمة وعقل ولا تريد أن تثار الأقاويل حول اسمها واسم أسرتها !

فأومأ مركوتشيو برأسه مستحسنا ، ثم اطرق بعض الوقت مفكرا ، ورفع رأسه أخيرا وقال لروميو :

ـ هون عليك أيها العزيز ، ان صديقك مركوتشيو عنده الحل الحاسم لهذه المشكلة ، كعهدك به فى مشكلات سابقة .

وشاع السرور فى وجه روميو ، وربت كتف صديقه وسأله فى لهفة :

ـ ماذا لديك من حل لهذه المشكلة ؟

فضحك مركوتشيو وقال له وهو يلاطفه :

ـ لن أخبرك به الا غدا ، بعد أن أفرغ من دراسته !

فسكت روميو قليلا ، ثم هز رأسه مستسلما وقال :

ـ لا بأس بذلك ، الى الملتقى مساء غد أيها العزيز

وغادر منزل صديقه صامتا ، ومضى الى قصر أبيه حيث أمضى

ساعات فى غرفته بين نائم ويقظان . وبعد ساعة من انتصاف الليل غادر القصر ، موليا وجهه شطر قصر آل كابلليتى ، متمنطقا تحت معطفه بسلمه الحريرى الذى صار من أحب الاشياء لديه منذ وطئت درجاته حبيبة القلب جولييت !

***

وفى الليلة التالية ، ذهب روميو بسلمه أيضـــا الى قصر آل كابلليتى ، وما كاد يستقر به مجلسه بجانب جولييت فى شرفة غرفتهـا حتى ابتدرها قائلا :

ـ لقد تخلصنا منه .. من رونزولونى !

فأخذتها البغتة وبقيت تحملق فيه صامتة بعض الوقت ،فابتسم وقال :

ـ لقد وعدتك بألا نستعمل العنف فى التخلص منه ، ومازلت عند وعدى !

فسألته متعجبة : « اذن .. ماذا حدث ؟ »

قال : « ستعرفين كل شيء عما قليل »

ولم تمض أيام حتى كان السيد رونزولونى قد طرح وراءه ظهريا أمر خطبة جولييت ، ولم يستطـــع أبوها أن يجتمـــع به بعـــد ذلك ليخاطبه فى هذا الأمر ، بل ان السيد كابللينى وزوجته صارا يبغضانه ويزدريانه بقدر ماكانا يميلان اليه ويفخران بمصاهرته . وبعد أن كانا يحاولان ارغام جولييت على قبـــول الزواج به ، انعكست الآية فصارت هى تلح فى سؤالهما متى يتم هذا الزواج متظاهرة برغبتها فى التعجيل باتمامه ، فى حين يلتمسان هما شتى المعاذير للمماطلة والتسويف ، ويقرعان سن الندم على أن اغترا بظاهـــر ذلك الريفى الخبيث ، شاكرين لله أن كشف لهما دناءته وحقارة نفسه واستهتاره بقـواعد الشرف والكرامة ، قبل أن يتم ذلك الزواج !

أما سر هذا التبدل والانقلاب فكان ماعرفه الخاص والعام فى فيرونا وضواحيها من توطد العلاقات الغرامية بين السيد رونزولونى والغانية روزالندا ، حتى صارا لا يكادان يفترقان ليل نهار !

ولم تكن بينهما معرفة سابقة ، ولكن مركوتشيو الداهية كان هو الذى سعى فى ذلك خفية ، اذ كلف صديقا له كتابة خطابين : أحدهما باسم روزالندا الى رونزولونى تعترف فيه بأنها أعجبت به كل الاعجاب لما سمعت عن لطفه وظرفه ومزاياه العديدة ، وتعرب عن شدة رغبتها فى الاجتماع به فى أى مكان ، والخطاب الاخر باســم رونزولونى الى روزالندا يبلغها فيه اعجابه بجمالها الساحر الجذاب ومجالســـها الطريفة الممتعة ، ويبثها وجده وشوقه الى تلاقيهما فى أى مكان !

ولم ينس مركوتشـــيو أن يرفق الخطاب الأول بزهرة جميـــلة عاطرة ، وأن يطوى الخطاب الآخر على جوهرة لطيفة نادرة .

خطيب جديد

خلا السيد كابلليتى الى زوجته فى قصرهمـــا يوما للمباحثة فى أمر جولييت وزواجها ، فقالت له :

ــ لقد جنينا على ابنتنا العزيزة بذلك الاختيار غير الموفق ، ولاشك أن المرض الذى عاودها أخيرا يرجع الى خيبة آمالنا جميعا فى ذلك النبيل الخبيث النفس . وعلينا أن نبحث لها عن زوج آخر والا ساءت العاقبة !

فقال لها : « الحق معك ، ولا سيما أن جولييت الآن قـــد بلغت السابعة عشرة ، وفى هذه السن ينحصر تفكير الفتيات عادة فى أمـر الزواج »

ــ ثم سكت قليلا وهو يعبث بلحيته مفكرا ، واستأنف كلامـه فقال :

ــ سمعت أن الكونت لودرون الشاب تبحث له أسرته عن زوجة لائقة ليعيش وإياها عيشة فاضلة هادئة هانئـــة ، بدلا من انغماسه فى حياة اللهو والملذات مع لداته واقرانه من الشبان . فمارأيك فى اختياره زوجا لجولييت ؟

فقالت السيدة كابلليتى :

ــ قبل أن نخطو أى خطوة فى هذا السبيل ، يجب أن نبحث بدقة وعناية حتى نتحقق أن هذا الكونت لن يخيب هو الآخر آمالنـــا فيه !

فقال لها : « لاشك فى انه شاب جميل ثرى ظريف مهـذب ، وصحيح ان أسرته ليست من حزب البابويين ولكنها تميـــل الينا ولم يحدث ان اصطدمت بأسرتنا فى خصومة قط ! »

فقالت : « اذن ٠٠ لا بأس من اختيـــاره زوجا لابنتنا ، وأرجو أن يكون التوفيق رائدنا فى هذه المرة ! »

وفوجئت جولييت بوالدتها تخلو اليها على اثر ذلك لتسألها :

ــ مارأيك ياجولييت ؟ .. أليس من المستحسن أن تفكرى من جديد فى أمر الزواج ؟.. ان الزوج الذى اخترناه لك فى هذه المرة يختلف كل الاختلاف عن ذلك النبيل الريفى الدنىء الدميم ، فهو بجانب ثرائه ونبل أسرته شاب وسيم مهذب و ٠٠٠

فقطعت جولييت كلام والدتها وقالت لها فى امتعاض شديد :

ــ لقد قررت ألا أتزوج !

وعبثا حاولت والدتها أن تزحزحها عن رأيها هذا قيد شعرة ، ولما علم بذلك أبوها غضب غضبا شديدا ودعاها اليه حيث قال لها محتدا :

ــ ماهذا ياجولييت ؟.. ألم توافقى على الزواج منذ حين ؟.. لماذا اذا ترفضينه الآن ؟

فقالت له فى لهجة مؤدبة وصوت خفيض :

ــ ان الحديث عن الزواج يملأ نفسى حسرة ومرضا . وخير لى من الزواج الآن أن أقذف بنفسى من أعلى برج القصر ، أو أن أهيم على وجهى فى الغابات والصحارى المليئة بالوحوش وقطاع الطرق ، بل خير لى من ذلك ان اقذف بنفسى فى جب مظلم تتكدس فيه الثعابين والحيات ، أو أن ادفن حية فى كفن واحد مع أشلاء قتيل !

ثم انفجرت على أثر ذلك باكية ، فأخذت أمها الرأفة بها وقالت لزوجها :

ــ فلنؤجل الحديث فى ذلك قليلا ، ان جولييت مازالت مريضة متأثرة مما حدث فى المرة الماضية .

وتركهما السيد كابلليتى وهو يزمجر ثائرا ويتهدد جولييت قائلا :

ــ يجب أن تفكرى فى هذا الأمر وتبتى فيه فى أقرب وقت ، والا فاستعدى منذ الآن لدخول الدير لتعيشى هناك مع الراهبات !

وبقيت السيدة كابلليتى ثمانية أيام كاملة وهى تلح على أذنى جولييت فى أمر الزواج محاولة اقناعها بالقبول .

ولم تكن جولييت قد علمت شيئا عن الخطيب الجديد الذى وقع عليه اختيار أبويها الى أن قالت لها أمها يوما وهى تحدثها فى هذا الشأن :

ــ ثقى بأننا لانريد الا سعادتك والاطمئنان الى مستقبلك يابنيتى . وهذا ماجعلنا فى هذه المرة ندقق فى اختيار الزوج اللائق بك . وفى استطاعتك أن تدركى أى تضحية قدمها ابوك لاجلك اذا علمت بأن خطيبك الجديد ينتمى الى أسرة ليست من حزبنا ، ولكنه شاب وسيم وبطل رياضى عظيم وقد أعرب عن شدة اعجابه بك . وتقديره مزاياك ، واستعداده لأن يكون بمثابة عبد مملوك لك ، يختصك بحبه واحترامه حتى آخر رمق له .

وخفق قلب جولييت ، وتضرجت وجنتاها الذابلتان بالحمرة ، اذ تبينت من كلام أمها ان ذلك الخطيب الجديد ليس سوى روميو .

ولم تتمالك عواطفها من فرط سرورها بهذه البشرى المفاجئة ،فارتمت على أمها وراحت تعانقها وتقبلها باكية قائلة :

ـ اننى عاجزة عن تقدير عنايتكما الكريمة بى ، وماكان لى أن أعصى لكما أمرا ، وأسأل الله أن يجزيكما عنى خير الجزاء .

وسارعت السيدة كابلليتى الى زوجها تزف اليه بشرى اقتناع جوليت وقبولها الزواج بالخطيب الجديد

وكان سروره هو الآخر عظيما ، ودعا اليه جوليت حيث استقبلها هاشا باشا وابتدرها قائلا :

ـ أرأيت يابنية كيف أننا لا ندخر جهدا أو نحجم عن تضحية فى سبيل سعادتك ومرضاتك ؟.. اننى أعتقد اعتقادا لاشك فيه أن اى فرد من حزبنا يعدل عشرة او اكثر من الاحزاب الاخرى،ولكنى مع ذلك قبلت أن أزوجك بشاب ليس من حزبنا ، لانه يحبك مخلصا وجدير بأن يجعلك سعيدة معه .

فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت وجسمها كله ينتفض لفرط تأثرها :

ـ شكرا لك يا أبى . لقد كنت موقنة بأن الله لن يتخلى عنى ، وأن أسرتنا وأسرة مونتيكى لا بد من أن تتصالحا ويحل الوئام والوفاق بينهما محل العداوة والبغضاء !

واخذ العجب جوليت ، اذ رأت وجه أبيها قد تجهم فجأة ، والتمعت عيناه ببريق الغضب ، وصاح بها قائلا :

ـ مالنا وآل مونتيكى ؟ .. ماهذا الهذيان ؟ .. أحسبت أن خطيبك الجديد من أولئك الاوغاد الانذال أنصار امبراطور الشمال؟. كلا .. كلا !.. ماكنت لأرضى لك ولا لخادمة عندك أن تكون زوجة لواحد من أولئك الأعداء الألداء الأدنياء .. ان خطيبك المختار ينتمى الى أسرة لودرون ، لا الى تلك الأسرة الحقيرة !

ولم تستطع الفتاة المسكينة أن تسمع بقية ثرثرة ابيها ، فقد أغمى عليها وخرت ساقطة على الأرض بين يديه ، من هول تلك المفارقة القاسية ، وانهيار آمالها فجأة بعد أن حسبت أنها تحققت أو كادت تتحقق بعد طول الانتظار !

وظن أبواها أن اغماءها كان نتيجة لفرط سرورها واغتباطها بنبأ الزواج الجديد ، وماكادت تفيق من اغمائها حتى انطلق أبوها يسرد على مسامعها مزايا الخطيب الجديد ، فى حين كانت هى شاردة الذهن ، موجعة القلب لا تعى شيئا مما يقول . ثم صحبتها أمها حتى أوصلتها الى غرفتها وتركتها هناك لتستريح بعد أن كررت لها التهنئة وأطيب التمنيات !

***

كشف سر الحبيبين

لم يكن تيبالدو ابن عم جولييت قد رآها منذ بضعة أشهر ، فقد شغل عنها باندفاعه فى مغامرات غرامية متتالية لم تدع لديه وقتا لمقابلتها أو التفكير فى أمرها . ثم حدث آن انتهت مغامرته الأخيرة بما اضطره الى الزهد فى حياة المغامرات والعودة الى التفكير فى ابنة عمه الجميلة اللطيفة التى طالما سعد بنظراتها وابتساماتها وأحاديثها

وكان الحادث الذى اضطره الى ذلك أن زوج المرأة التى اختارها بطلة لمغامرته الأخيرة كان عملاقا غيورا قوى العضلات ، فما كاد يعلم بأنه يحوم حول زوجته حتى ترصد له وانهال عليه باللكمات والصفعات حتى كاد يقتله !

ولاحظ تيبالدو اصفرار وجه جولييت وشدة اكتئابها ، وما ان علم منها بأن أبويها يريدان ارغامها على الزواج بالكونت لودرون ، حتى ثارت الغيرة فى صدره وقال لها :

ـ كيف يكون هذا ؟.. كلا ياجولييت كلا !.. ثقى بأن ذلك الزواج لن يتم أبدا .. واذا أصر عليه ذلك الكونت الدنس المنغمس فى الرذائل . فان سيفى كفيل بزجره وردعه وتأديبه ليكون عبرة لسواه .

وجلس تيبالدو يسليها ويلاطفها بشتى الأحاديث ، وقد اعتزم أن يصرح لها فيما بعد بأنه سيخطبها لنفسه اذ هو أولى بها من أى انسان آخر وكأنما انست هى الى ملاطفته ، وأرادت أن تخفف بعض ما تعانيه من حبها المكبوت لروميو ، فقالت له :

ـ لقد اختار لى أبى قبل ذلك نبيلا أعور ثقيل الظل هو رونزولونى وهاهو ذا يختار لى ذلك الكونت الفاسد الخلق . ولكنى ماكنت لأستطيع قبول الزواج بهذا ولا ذاك ، لأنى وهبت قلبى لآخر منذ زمن بعيد !

وملأ الزهو والخيلاء وجه تيبالدو ، اذ حسب أنها تعنى حبها له هو .

وقال لها فى حماسة وهو يضع يده على مقبض سيفه :

ـ هونى عليك يا ابنة العم ، وكونى على يقين من انك لن تتزوجى الا من تحبين !

وازدادت جولييت اطمئنانا اليه ، فمضت فى اعترافها قائلة :

ــ لقد احببته من كل قلبي حبا طاهرا شريفا ، وبادلني هو هذا الحب وتعاهدنا على أن يكون كل منا للآخر ، ولكني لا أستطيع أن أصرح لوالدي بأني لا أريد الزواج بأحد غير روميو مونتيكي !

وجن جنون تيبالدو ، ونهض ثائرا وهو يقول :

ــ ماذا تقولين ؟.. أنت تحبين روميو مونتيكي ؟ ! ان هذا جنون، اي عار ألحقت بآل كابلليتي .. كلا .. كلا !.. هذا شيء لا يمكن السكوت عليه !

ثم خرج مهرولا وذهب الى حيث كان عمه جالسا مع زوجته ، فابتدرهما قائلا وهو مازال غاضبا ثائرا :

ــ أية فضيحة هذه ؟.. ان ابنتكما تحب روميو مونتيكي وهو يحبها ! أين كانت رقابتكما عليها حتى ألحقت بالأسرة هذا العار الشنيع ؟!

ومضى في ثورته وحنقه يضرب المائدة التي امامهما بقبضته حينا ، ويذرع جوانب القاعة مرغيا مزبدا حينا ، وهما ذاهلان يتبادلان نظرات الدهشة والاغتمام . ثم لم يستطع السيد مونتيكي صبرا على ذلك فصرخ فيه قائلا :

ــ ماذا أصابك يا تيبالدو ؟.. انك تزعجنا بحماقتك هذه . ان كونك ابن المرحوم أخي لا يسمح لك أبدا بأن تقف في حضرتي غير موقف الأدب والاحترام . أغرب عن وجهي الآن أيها الولد الوقح المجنون !

ولم يسع تيبالدو الا أن يغادر قصر عمه وهو يرغي ويزبد ويبصق على الأرض ويضربها بقدميه مزمجرا كأنه أسد طعين مثخن بالجراح !

***

لم تجد محاولات السيد كابلليتي ولازوجته شيئا في سبيل الوقوف على حقيقة العلاقة بين ابنتهما وروميو ، فقد أصرت جولييت على الانكار كما أصرت أوزيبيا وكل خدم القصر على ألا علم لهم بشيء عن تلك العلاقة الآثمة الخطيرة التي أكد تيبالدو ان جولييت اعترفت له بها !

وفكر الوالدان في الأمر مليا ، فلم يجدا خيرا من التعجيل بزواج ابنتهما بالكونت لودرون ، ولم تمض أيام حتى دعاه السيد كابلليتي الى قصره وقدم له جولييت قائلا :

ــ هذه هي جولييت ابنتي ياكونت ، ولاشك انها فرحة فخورة بهذا اللقاء السعيد !

وكان الكونت لودرون في الثلاثين من عمره ، معجبا بوسامته وأناقته وثقافته ، وقد ارتدى معطفا سميكا من الفراء الثمين حلي بالأشرطة والسلاسل الذهبية ، ورائحة المسك تفوح قوية من أردانه ، فركع امام جولييت وتناول يدها متلطفا وطبع عليها قبلة رقيقة ، ثم قال متظرفا :

— يشرفني جدا أن أسعد بالمثول بين يدى الآنسة النبيلة المهذبة . ولاشك ان أقدر العارفين بالحسان لايمكن أن يجدوا من تدانى الانسة فى هذا الجمال والجلال !

وحينما استقر بهم الجلوس ، حرص السيد مونتيكى وزوجته على أن تجلس جولييت الى جوار خطيبها الجديد ، ليحاول أن يكتسب قلبها بحديثه العذب حسب الاتفاق . فأخذ يحدثها عن الحكماء والفلاسفة وأبطال العصور القديمة ، وعن الروائح العطرية النادرة التى جلبها من بلاد العرب ، وعن رحلاته للصيد والقنص ، وألوان الطعام الحديثة التى كان أول من قدمها على موائده فى المآدب والحفلات التى يقيمها بقصره الشاهق الجميل .

وكان خلال ذلك شديد الحرص على ان يظهر لها وسامته وقوته وأناقته فى حركات واشارات متكلفة . ثم دخل فى الموضوع الذى جاء لأجله فقال لها :

— فى أى فصل من فصول العام تفضل سيدتى الجميلة أن يتم الزفاف ؟!

وكان صبر الفتاة قد نفد ، ولم يسعها ان تستمر فى تمثيل دور الخطيبة السعيدة بخطيبها طبقا لتعليمات أبويها ، فأجابته قائلة :

— الواقع أنى لا اريد الزواج فى أى فصل من فصول السنة ، وقد اعتزمت أن اهب نفسى لله واعيش عيشة الراهبات !

وأطلق الكونت ضحكة عالية متكلفة ، اذ حسبها تمازحه ، ثم قال لها :

— أن مثل هذا الشعور ياسيدتى ينتاب كثيرا من الفتيات قبيل الزواج ، وذلك لكثرة تفكيرهن فيما ستكون عليه حياتهن الجديدة فى وسط آخر غير الذى نشأن فيه .

ثم ضحك مرة أخرى وبالغ فى تظرفه قائلا :

— على أنى واثق كل الثقة بأن شعور سيدتى لابد أن يكون على عكس ذلك تماما ، فذلك شأن كل فتاة تعرف أنها ستغادر دار أهلها لتحيا حياة أجمل وأسعد فى دار زوجها ، ولاسيما اذا كانت حياتها الجديدة فى قصر عظيم لاتنقطع منه المآدب والحفلات ، ومع زوج محب مطيع لايدخر وسعا لكى يهيىء لها كل ماتتوق اليه من رحلات مسلية ومباهج مختلفة وذرية جميلة صالحة !

وجاهدت جولييت عواطفها واطرقت ساكتة محاذرة أن تبدو منها بادرة أخرى تفضح شعورها ازاء الكونت المتظرف السخيف ، فيغضب أبوها وينفذ ماتهددها به من ارسالها الى الدير ، فى حين أنها اتفقت مع روميو على أن تتظاهر أمام والديها بقبول ذلك الخطيب الجديد ، ريثما يدبر حيلة لاقصائه من طريقها كما حدث فى شأن الخطيب السابق .

وظن الكونت أنها أطرقت حياء وخفرا ، فابتسم مزهوا بنفسه ، ومضى يلقى على سمعها حديثا طويلا ثقيلا عن مزايا الحياة عند الفتيات قبل الزواج .

ثم انصرف أخيرا بعد أن ودعها بمثل تلك الحركات المسرحية البهلوانية ، وشيعه ابواها بكل اجلال واعجاب !

***

سمع السيد كابلليتى ضجة بباب قصره وهو جالس فيه ذات صباح ، ثم جاء اليه أحد الحراس وأخذ يعتذر عن وقوع تلك الضجة قائلا :

ـ ان قزما أحدب جاء الى القصر مبكرا وزعم انه يريد مقابلة سيدى فى شأن خاص ، فلما لم تجز حيلته علينا وطلبنا منه ان ينصرف ثم يعود بعد الظهر لينال نصيبه من فضلات الطعام والشراب ، رفض أن ينصرف وأحدث تلك الضجة .

وأمره السيد كابلليتى باحضاره اليه ، وما ان وقعت عليه عيناه حتى بدأ الاشمئزاز فى وجهه وبصق على الأرض ، ثم صاح به من بعيد قائلا :

ـ ماهذا ؟ .. أمجنون انت ؟!

فرفع القزم الأحدب وجهه المشوه متحفزا للكلام ، ثم تقدم خطوات الى الأمام فى مشية غريبة مضحكة لقصر فى احدى ساقيه وانخفاض احدى كتفيه عن الأخرى ، وقال بصوت أجش يشبه نقيق الضفادع :

ـ لدى أمر خطير كبير الأهمية ، وقد جئت لأبلغه الى السيد المحسن الكبير فكاد الحراس يحولون دون قيامى بهذا الواجب .

فسأله السيد كابلليتى فى غير اكتراث :

ـ ماهو هذا الأمر ؟

فقال القزم الأحدب بعد أن التفت الى الحراس الواقفين خلفه :

ـ ان ما جئت لأجله ينبغى ألا يسمعه أحد غير السيد عميد آل كابلليتى وحده !

فتفرس فى وجهه هنيهة وهو يغالب التقزز من قبح منظره ، ثم أشار الى الحراس الواقفين أن ينصرفوا وقال له بعد انصرافهم :

ـ تستطيع الآن أن تقول كل مالديك ، على أن توجز كل الايجاز .
فاقترب القزم الأحدب خطوتين أخريين ، ثم قال له :

ـ ان طارقا غير مرغوب فيه زار هذا القصر ليلة أمس وبقيت أنفاسه الدنسة تتردد فى بعض جوانبه الطاهرة حتى مطلع الفجر ،

وقد لمحته حينما هبط السور فى خفة الثعالب لكنه اختفى فى منحنيات الطريق قبل أن اتمكن من اللحاق به ورؤية وجهه .

فتذكر السيد كابلليتى عنـــد ذلك ما كان تيبالدو قد نبأه به من أن هناك غراما متبادلا بين جولييت وروميو مونتيكى ، لكنه طرد هذه الفكرة من ذهنه وسأل القزم الأحدب قائلا :

ــ أكان لصا ؟ .. وهل رأيته يحمل معه شيئا ؟

فهز القزم راسه ذات اليمين وذات الشمال ، ثم قال :

ــ نعم هو لص خطر مافى ذلك شك ، لـكنه لايسرق الا قلوب العذارى !

وهنا ارتجف السيد كابلليتى غضبا ، اذ عادت الى ذهنه فكرة الغرام المتبادل بين روميو وجولييت ، ثم سأله مرة أخرى :

ــ كيف علمت أنه دخل القصر لأمر كهذا ؟

فقال : « مررت بذلك الجانب من القصر سحرا ، وكنت متعبا ولا أكاد اتبين الطريق لشدة الظلام ، فأويت الى السقيفة القائمة هناك ، وفيما أنا أهم بالنوم ، لمحت شبح ذلك اللص وهو يتسلق الســور ويقفز الى شرفة فوقه ، ثم لبثت ساعتين وانا أسمع همسا صادرا من هناك ، وكان فى توديعه عند انصرافه شبح يقف فى تلك الشرفة متشحا بالبياض ! »

وهنا لم يبق شك لدى السيد كابلليتى فى صـحة اتهام ابنته ، وأخذ يفكر فى وسيلة للانتقام وغسل تلك الاهانة ، ثم استأنف الأحدب كلامه فقال :

ــ ان العاشق المجرم المجهول سيعود الى فعلته التى يســتحق عليها أشد العقاب و ...

فقطع السيد كابلليتى كلامه وقال : « سأنتظره وأمزق قلبــه بخنجرى ! »

فقال الأحدب : « انه أمكر من ثعلب ، فينبغى ألا نثير ارتيـــابه وحذره والا أفلت منا . وخير من ذلك أن نفرش الأرض فى ذلك الموضع برماد يلصق بنعله فيسهل علينا أن نقص أثره لنعلم اين يذهب بعـد ارتكاب جريمته ! »

فأومأ موافقا وقال : « انك لست غبيا ، وسنفعل هذا ، وويل لك ان كنت من الكاذبين ! »

***

وفى الليلة التالية ، التقى العاشقان ، وكانت جولييت تشعر بقلق خفى يضطرم فى نفسها ، وشعر روميو بارتجافها بين ذراعيه فقال لها :

ـ اطمئنى ياحبيبتى ، ان الله سيخلصنا من هذا الخطيب الجديد كما خلصنا من سلفه ، وسيكلل صبرنا بالفوز فنصبح زوجين أمام الله والناس ، ولاتبقى لنا حاجة الى التخفى والتكتم !

فتأوهت ونظرت اليه قائلة :

ـ ما أحسن أن يتحقق هذا الأمل أيها الحبيب ، ولكننى خائفة

ـ نعم ياروميو اننى اخاف العقبات التى تعترض سبيلنا !.

وفيما هما كذلك وصل الى سمعهما صوت بلبل يغرد على غصن شجرة قريبة من الشرفة ، ومالبث قليلا حتى جاوبته أصوات لطيفة أخرى من البلابل المستقرة على الأشجار المجاورة ، فبقى الحبيبان حينا وهما يصغيان لموسيقى البلابل المغردة توديعا لليل واستقبالا للنهار . ثم طارت بعض العصافير فجأة ومرت قريبا منهما فأجفلت جولييت وازدادت التصاقا بروميو ، ثم همست اليه قائلة :

ـ آه ياروميو ! .. ما أقسى أن يحال بين قلبينا المتحدين !! .. ان تلك العصافير تستقبل النهار سعيدة مستبشرة ، لأنها تمضى فى نوره حرة طليقة ، أما نحن ...

ثم التفتت برأسها الى الأفق الممتد أمام الشرفة وقد بدت تباشير الصباح ، وبدأت اجراس الكنائس تطلق دقاتها المنتظمه فيختلط رنينها بتغريد الطير وحفيف أوراق الشجر ، وعادت تهمس اليه قائلة :

ـ روميو .. لم حانت ساعة الفراق عاجلة هكذا ؟! .. انا لا أريد أن نفترق أبدا !.. ولكنى أخشى عليك الأخطار المحيطة بنا .

فقال لها وهو يضمها الى صدره :

ـ لاتخشى شيئا .. هناك عند أدنى السور رجل أحدب مسكين كلفته أن يرصد الطريق ، وسأسمع صفيره منذرا أياى ، اذا رأى ما ينبغى أن ينذرنى به !

فبغتت وأفلتت ذراعاها من عنقه ووضعت يدها على قلبها قائلة :

ـ ماذا قلت ياروميو ؟! .. أهناك الآن من يعلم بأمرنا ؟ .. من يكون ذلك الرجل ؟ .. هل يحمل سلاحا ؟ .. وهل أعطيته مالا ؟ .. آه ياروميو ، كم أنا خائفة ! .. أنسيت ماذكرته لى عن نبوءة المنجم لك فى طفولتك ؟ .. الم يذكر أن هناك خطرا على حياتك من رجل يأتى من الشرق ، ويأخذ منك مالا لقاء الشر الذى يصيبك منه ؟!

فابتسم روميو وربت شعرها متلطفا وقال :

ـ تلك خرافات تلوكها السنة المنجمين ، وليس هناك مايدعو الى الخوف والقلق ، فاطمئنى واصبرى ، وليس بعد الصبر الا الفرج بعون الله .

ثم حدق في عينيها وهو يبتسم ، وعاد يضمها الى صدره في عطف وحنان ، ثم تبادلا قبلة الوداع . وقفز الى السور ثم أخذ يهبطه وهي تتبعه بنظراتها حتى لم تعد تراه !

وبعد ساعة كان السيد كابلليتي يقف هناك عند أدنى السور ، وبجانبه ذلك القزم الأحدب الخبيث . ثم أخذا يقصان أثر قدمي روميو عبر الطريق مهتديين بما تخلف عنهما من الرماد الذي ذره الأحدب الماكر هناك ، الى أن انقطع الأثر عند قصر آل مونتيكي ، فعاد السيد كابلليتي الى قصره وصدره يغلي غيظا وحنقا ورغبة في الانتقام !

وقرر أول الأمر أن يزج بجولييت في السجن لتقضي فيه بقية حياتها مكفرة عن الذنب الذي اقترفته ، ثم رأى أن يستبدل الدير بالسجن . على أن زوجته مازالت به تهدىء من ثورته ، وتخفف غضبه ، حتى رضي أخيرا بأن يعدل عن هذا وذاك صونا لشرف الأسرة وكرامتها من القيل والقال ، على أن يعجل بزواج ابنتهما من الكونت لودرون خطيبها الجديد .

ثم خلت بعد ذلك الى جولييت ، وحدثتها بكل ماكان ، طالبة منها أن تستغفر لذنبها ، وأن تنسى الى الأبد ذلك الفتى الذي حاول أن يلطخ شرفها وشرف أسرتها بالعار .

وبدأ الاستعداد للزواج منذ ذلك اليوم ، دون أن تستطيع جولييت أن تبدي أي معارضة أو احتجاج أو رغبة في التأجيل ، ودون أن يبقى لديها أي أمل في لقاء روميو لتحذره ما يهدد حياته من الاخطار ، فقد أصدر أبوها أمره بنقلها الى غرفة أخرى بعيدة عن غرفتها الأولى !

الفصل الثامن

وفاء الحبيبين

زواج أمام الله

توجه روميو الى قصر كابلليتي في الليلة التالية ليلقى جولييت في شرفتها كما تعودا ، ولكنه وجد غرفتها مظلمة ، وشعر بأن هناك من يرقبون الطريق • فعاد من حيث أتي واجف القلب حيران • واستمر يكرر محاولته بضع ليال دون جدوى ، الى ان تحقق انكشاف أمرهما ، ونقلها الى غرفة أخرى استعدادا لعقد زواجها بالكونت لودرون •

وضاقت عليه الارض بما رحبت ، ولم يستطع صديقه مركوتشيو ان يسعفه بحل عاجل لهذه المشكلة ، فلاح له أن يلجأ الى الاب لورنزو استاذه القديم ليشاوره في الامر • وكان هذا يعيش معتكفا بين الاعشاب والنباتات التي يستخرج منها الادوية في دير الآباء الفرنسيسكيين ، وقد مضى عليه خمسة عشر عاما لم ير خلالها روميو ، فتلقاه مرحبا به ، واستمع لحديثه عن مشكلته في عناية واهتمام ، ثم قال له :

ـ ان مستقبل الفتاة يابني منوط بارادة والديها ، وما داما قد أرادا لها الزواج من ذلك الكونت فليس لأحد أن يعارضهما في ذلك • ولست أرى أملا في صلح قريب بين أسرتيكما • وعلى هذا لا مناص لك من الصبر والاستسلام لما يجرى به القضاء !

وانصرف روميو يائسا وهو يتمتم قائلا :

ـ اى صبر يمكن أن ينفع في مثل هذا الأمر ، لا شيء غير الموت يستطيع ان ينقذني من هذا العذاب المرير !

ولبث الاب لورنزو طول يومه يصلي ويفكر في وسيلة ينقذ بها تلميذه العاشق والفتاة التي عاهدته على الوفاء •

ثم فوجيء في اليوم التالى بأن جاءت اليه جولييت في صحبة أمها ، مبدية رغبتها في ان تعترف أمامه ، فلما خلا اليها انفجرت باكية على كرسى الاعتراف وقالت له:

ـ أنني أحب روميو مونتيكي ، ولا أريد به بديلا أيا كان ، ولكن أبي يريد أن يزوجني بآخر لا أشعر نحوه بغير الازدراء ، بل انى أوثر الموت والسجن على الزواج به • وأنا أعرف انك تحب روميو وتقدر نبل نفسه وطهارة قلبه ، ولهذا جئت التمس عندك مخرجا من هذا المأزق !

وأطرق الاب لورنزو قليلا وهو يتمتم ببعض الصلوات والادعية ، ثم قال لها في صوت ينم عن الشفقة والرثاء :

ـ ماذا أستطيع أن أصنع لأجلكما يابنيتى ؟ ان العداء بين أسرتيكما لم يدع هناك أى أمل فى تحقيق حلمكما الجميل النبيل !

فقالت له : « لقد لاحت لى فكرة الآن ٠٠ ان روميـــو يستطيع أن يحضر اليك هنا وأن يجلس على كرسى الاعتراف الملاصق لهذا الكرسى »

ثم سكتت وأخذت تنظر اليه ذاهلة ، وواصلت بعد ذلك كلامهـــا فقالت :

ـ لن يساور والدتى أى شك فى أن روميو مونتيكى يمكن أن يكون جالسا الى جوارى هنا ٠ فمن الممكن أن يحضر قبلنا ويجلس على كرسى الاعتراف دون أن تراه ٠

فقال لها وهو يقلب كفيه متسائلا : « وأى فائدة لكما من ذلك ، هل هذا يمنع زواجك من الفتى الآخر الذى اختاره أبواك ؟! »

فقالت : « نعم يا أبى ٠ أنه يمنع ذلك الزواج البغيض ، بل يحول دون موتى وموت روميو غما وكمـــدا ٠٠ ولا يقتضى الامر الا أن توافق أنت ! »

فجحظت عينا الراهب الشيخ وفغر فاه دهشة ، بينما واصلت هى همسها له ودموعها تبلل خديها قائلة :

ـ فى استطاعتك أيها الأب الشفيق ، أن تعقد زواجنا أنا وروميو ونحن هنا بين يديك ٠ وبذلك تضع أسرتينا أمام الأمر الواقع ، ولا يبقى هناك من يستطيع أن يحل الرباط المقدس الذى ربطت به بين قلبينا !

وزفر الأب لورنزو زفرة حارة ، وهز رأسه أسفا ، وقال لها :

ـ هذا حق يابنيتى ، ولكننى لا أستطيع الاقدام على عمل كهذا ، لا شك فى أنه يثير غضب آل كابلليتى وآل مونتيكى معا !

فجثت جولييت بين يديه ، وتناولت يده وراحت تقبلها ، ثم قالت له :

ـ ما الذى تخشاه يا أبى ، ان أهل المدينة جميعا على يقين من صلاحك وتقواك ، ولن يداخلهم أدنى شك فى حسن نيتك ونبل قصدك ،وابتغائك وجه الله والصالح العام ٠٠ ان أسرة ديللا سكالا حاكمة فيرونا ما زالت تسعى جاهدة للصلح بين آل مونتيكى وآل كابلليتى ٠ وليس ثمة أى ريب فى أنها ستتلقى صنيعك هذا بالحمد والاغتباط ، لأنه خير ما يؤيد مساعيها النبيلة لنشر الأمن والطمأنينة فى المدينة !

وفكر الأب لورنزو مليا فى هذا الأمر ، ثم مـــد يده وربت كتف الفتاة الراكعة الدامعة أمامه : واستمر قائلا لها :

ـ لتكن ارادة الله ٠ انهضى يابنيـــة وكفكفى دموعك واطمئنى ٠ سيأتى روميو الى هنا فى الساعة السابعة بعد ظهر يوم الاثنين القـــادم

فيجلس على هذا الكرسى الذى بجانبك ، وبعد ساعة تحضرين أنت ووالدتك .

ولم تجد جولييت أية عقبة فى سبيل حضورها الى الكنيسة فى ذلك الموعد ، فقد اعتقد أبواها أنها تريد أن تطهر نفسها بالاعتراف قبل زفافها القريب الى الكونت لودرون ، وصحبتها أمها راضية مطمئنة جذلة الى الكنيسة ، وبقيت في انتظار فراغها من اكمال اعترافاتها وهى تصلى هناك قريبا من المذبح ، الى أن أتم الأب لورنزو مراسيم الزواج ، ودعا للزوجين الحبيبين بالسعادة والتوفيق .

***

علم تيبالدو من أحد خدمه أن قزما أحدب يغشى حانات المدينة كل مساء ، منفقا على أصدقائه من الدهماء والمرتزقة بسخاء ، وانه يزعم للمستمعين لثرثرته فى كل حانة يغشاها أن ذلك المال الكثير الذى ينفقه جاءه من السيد كابلليتى مكافأة له على كشف سر خطير كاد يلحق العار بأسرته الكبيرة .

وأدرك تيبالدو أن ذلك السر ليس سوى الغرام المتبادل بين ابنة عمه وروميو مونتيكى ، فعاوده حقده على روميو ، وقرر أن يغتال حياته، ثم أخذ يعد لذلك عدته ، فاختار اثنين من أعوانه . ثم كمن ثلاثتهم فى طريق روميو حتى بصروا به ذات ليلة عائدا الى قصره ومعه مركوتشيو صديقه الحميم . وحينئذ خرجوا عليهما وتقدم تيبالدو وهو يحجب وجهه بقبعته وياقة معطفه فتحرش بمركوتشيو وصدمه صدمة عنيفة كادت تطرحه أرضا .

وتحفز روميو لتأديب ذلك الشخص الوقح الطويل اللسان ، ولكن مركوتشيو قال له : « لا عليك ياصديقى ، انه سكران ! »

ولكن تيبالدو عاد يقول : «لو أننى سكران لأفقت بالغثيان لمنظركما» وهنا ضحك روميو ، ثم قال لتيبالدو دون أن يعرفه :

ــ لن نكلفك عناء افراغ ما فى جوفك لكى تفيق ، واذا لم تكف عن هذرك فسأفتح كرشك بسيفى هذا لاخلصك مما فيه من شراب ردىء !

وسرعان ما استل تيبالدو سيفه من غمده وهجم به على مركوتشيو ، بينما استل زميلاه البابويان سيفيهما وهجما على روميو .

واستطاع تيبالدو أن يجرح مركوتشيو فى ثلاثة مواضع من وجهه وجسمه ، ومازال يشدد الهجوم عليه حتى اضطره الى التقهقر متخاذلا حيث استند الى جدار نافورة هناك كيلا يختل توازنه . أما روميو فاستل سيفه بسرعة متلقيا به مبارزيه ، وقد أدرك أن فى الامر شركا منصوبا ثم سرعان ما دس نصل سيفه فى ذراع أحد الرجلين ، ثم هجم على الآخر فصلم احدى أذنيه . ولم يشأ أن يتعقبهما بعد أن لاذا بالفرار صارخين مولولين . بل انطلق الى حيث كان تيبالدو قد ضيق الحصار على مركوتشيو وكاد يفتك به . وفى مثل لمح البصر أطار قبعة تيبالدو عن رأسه بضربة فنية أخرى . ثم عرفه بعد انكشاف وجهه فصاح قائلا :

ـ تيبالدو كابلليتى ؟٠٠ دعه لي يامركوتشيو ، انه يريدنى أنا !

وحول تيبالدو هجومه الى روميو ، عاجله بضربة أودعها كل قوته وحقده ، على أن روميو عرف كيف يروغ من هذه الضربة . وفى الوقت نفسه استطاع أن يطير سيف تيبالدو من يده بضربة فنية سريعة بارعة، ثم وقف يضحك ساخرا منه اذ رآه وقد تملكه الذعر والاضطراب ٠

على أن تيبالدو لم يعتبر بهذه التجربة القاسية ، ولا بتورع روميو عن قتله فى يسر وسهولة خلال الفترة التى جرده فيها من سلاحه ٠ فما كاد يصل سالما الى حيث استقر سيفه على الارض حتى التقطه ، ثم كر شاهرا اياه فى يده ليعاود النزال وعيناه تقدحان بشرر الحقد والبغضاء ٠

وضحك روميو مرة أخرى وقال له فى صوت هادىء رزين :

ـ حسبك يا تيبالدو ، وأغرب عن وجهى ، فليست بى حاجة الى قتلك !

ولكن تيبالدو ركب رأسه ومضى فى هجومه غير عابىء بتلك النصيحة ٠

وهنا لم يسع روميو الا أن يتلقى هجماته بأشد منها ، ولم تمض دقائق حتى عاجله بضربة رأسية نفذ بها نصل سيفه الحاد فى كرشه واخترق قلبه ونفذ من ظهره ، فترنح متوجعا وسقط على الارض فاقد الحراك !

وشهد زميلاه مصرعه وهمايرقبان المعركة من بعيد ، فعلا صراخهما ، وأخذا يستنجدان بالحراس ، بينما سارع مركوتشيو الى روميو وجذبه من كتفه وهو مكب على جثة تيبالدو يحاول اسعافه ، وهتف به قائلا :

ـ ماذا تنتظر ياروميو؟ ٠٠ هيا ٠٠ أما ترى الحراس قادمين برماحهم ومصابيحهم من أقصى الشارع ؟!

وظهرت على أثر ذلك أضواء فى نوافذ بعض الدور القريبة ، وفتحت أبواب هنا وهناك وبدت أشباح السكان الذين استيقظوا على أصوات الاستغاثة تتحرك فى اتجاه ميدان المعركة ، فنهض روميو وانطلق هو ومركوتشيو راكضين بأقصى سرعتيهما حتى لا يلحق بهما المطاردون !

وهناك فى أقصى الشارع ، فوجىء روميو بشرذمة من الحراس المسلحين قادمين من الجهة الأخرى ، فسقط فى يده ووقع بين نارين ، وبقى هنيهة حائرا يدور حول نفسه ويدور رأسه حوله ، ثم قفز بكل قوته الى شرفة قريبة منه ، وتسلق النافذة التى كانت تعلوها حتى بلغ سطح الدار فصعد اليه فى اللحظة التى وصل فيها القادمون وراحوا يسددون اليه سهامهم صائحين محذرين ٠ ولكنه كان قد أفلت من أيديهم وسهامهم اذ قطع عرض السطح زحفا على بطنه وهبط فى أقصاه الى حديقة مجاورة تابعة لدير الآباء الكوردالبين ٠

وفى صباح اليوم التالى، جاء السيد البرانو ديللاسكالا حاكم المدينة

بنفســه الى الدير ، وأخرج منــه روميو ، ولـكيلا تنشب الحرب بين أسرتى كابلليتي ومونتيكي ، حـكم بنفيه من فيرونا ، وبأن يغـادرها الى مانتو قبل أن تغرب شمس ذلك النهار !

***

وكانت جولييت قد استيقظت على الضجة التى ملأت قصر أبيهـا ، وهرعت اليها أوزيبيا ودخلت عليها غرفتها تبكى وتولول وتندب قائلة :

ـ يا للهول ·· يا للنكبة النكباء والداهية الدهياء ! ·· لقد مات !

وشهقت جولييت شهقة قوية ، وكاد قلبها يقف من هول الفجيعة التى شعرت بها ، اذ انصرف ذهنها دون تفكير الى روميو ·

ولكن أوزيبيا استمرت في ولولتها وندبها وأخذت تقول :

ـ ويل لآل مونتيكي ، لقد قتله روميو ابنهم !

وهنا أحست جولييت ان موجة ثلجية غمرتها ، وصاحت بأوزيبيـا قائلة فى لهفة :

ـ ماذا حدث ؟ تكلمي يا أوزيبيا !

فقالت لها : « لقد مات تيبالدو قتيلا بيد روميو مونتيكى ! »

وانتفضت جولييت ، ثم تملكها الذهول وتهالكت على مقعدهاكالمغمى عليها ، ولم تدر أتفرح لسلامة روميــو حبيب القلب والزوج الشرعى أمام الله ؟· أم تحزن لمصرع تيبالدو ابن عمها ورفيق صباها ؟

وبقيت حتى العصر وهى ذاهلة مشدوهة ، وبين الفينة والفينة تتأوه أو تصعد الزفرات مرددة :

ـ روميو ·· تيبالدو ·· تيبالدو ·· روميو !

ولما علمت بعد ذلك بأن الحاكم مضى للقبض على روميو ، لم يعد فى ذهنها أى صورة لغير روميو والخطر المحدق بحياته ، ولم تقو على تحمــل الفرحة بنجاته من القتل ، فأغمى عليها حين علمت بأن الحاكم اكتفى بأن نفاه !

وأفاقت الفتاة من اغمائها · فاذا أبوها قد عاد الى القصر ، ثم اذا هو يأمر بأن يزج بها فى غرفة السجن بأعلى القصر ، وأن تترك فيها حتى تغادر القصر الى قصر زوجها المنتظر بعد انتهاء الحداد !

وكان السيد كابلليتى فىحال من الغضبوالثورة لم تجرؤ معها زوجته على أن تستعطفه أو تسأله الرأفة بابنتهما الحــزينة المريضة . فشيعتها الى تلك الغرفة مواسية ، وتركت معها هناك أوزيبيا لتؤنس وحــدتها وتسليها · وقبل أن تنصرفالأم سمعتابنتها تهتف باسم روميو،فالتفتت اليها وصاحت بها قائلة :

ـ لا تتعلقى بالمحال يا جولييت ، ان روميو قد انتهى من فـيرونا ، ويجب أن يختفى من أفق حياتك لكى تنعمى بزواج سعيد !

ولم تنبس جولييت ببنت شفة ، وبقيت على صمتها وذهولها يومين كاملين ، لم يدخل فى جوفها خلالهما غير الماء وقليل جدا من الطعام !

وفى اليوم الثالث استيقظت أوزيبيا من مرقدها أمام فراش جولييت، فلم تجدها فيه ، ووجدتها تتسمع عند باب الغرفة الى أغاريد العصافير وهى تردد اسم روميو ، فصاحت بها :

ـ أى حماقة هذه وأى جنون ؟٠٠ ان هذا الاسم يجب أن يمحى من ذاكرتك ٠٠ انه قاتل تيبالدو ابن عمك الحبيب !

فتنهدت جولييت وتساقطت دموعها على خديها وقالت تحدث نفسها:

ـ كيف ؟٠ كيف لا أذكر اسمه وكيف لا أحبه ؟ انه حبيبى وزوجى أمام الله !

ولم يتطرق الى ذهن المرضع ان ما سمعته ليس سوى اعتراف من جولييت سبق به لسانها برغم حرصها على كتمان أمر ذلك الزواج ، وظنت المرضع الخالية الذهن والقلب ان الامر لا يعدو أمنية ترددها الفتاة العاشقة، فنهضت ومضت اليها ووقفت بها على الباب بعد أن فتحته ، ثم أشارت الى مناظر الحقول والبساتين الممتدة أمامهما وقالت لها :

ـ ارجعى الى عقلك يا بنية ٠٠ انك ستزفين الى زوجك الكونت لودرون بعد أيام ، وأنت ما زلت فى مقتبل صباك ، ومجال السعادة أمامك فسيح ٠٠ فهيا سرحى بصرك فى هذا الافق المشرق حيث الخضرة الزاهية يتخللها ماء الاديج الفضى اللامع ، والجبال الشاهقة والروابى المرتفعة تحيط به ٠٠ ان هذا كله خليق أن يوحى اليك بحب الحياة !

ونظرت جولييت الى مرضعها الحنون الطيبة القلب فى أسف وأسى، ثم ارتمت على صدرها باكية وقالت :

كل هذه المناظر والمباهج كانت رائعة ممتعة حينما كنا نستمتع بها معا !. أما الآن فلست أرى الا صورته ، ولست أسمع غير صوته . انه ملء قلبى يا أوزيبيا ٠٠ ان حبه يسرى مع الدم فى عروقى وأعصابى ٠٠ آه !٠ لو أننى أستطيع اللحاق به ٠٠ اننى على استعداد لأن أقص شعرى وأرتدى ثوب خادم أو حامل سلاح اذا كان هذا يقربنى اليه !

***

وبعد أيام كان الاستعداد لزفاف جولييت قد أوشك أن يتم ، وأقبلت الهدايا تترى على قصر آل كابلليتى من صهرهم المختار الى ابنتهم التى أعجبه جمالها وخفرها وحياؤها ، وصدق ما توهمه من انها شغفت به حبا بعد أن أعجبت بوسامته وأناقته وظرفه وفلسفته وذكائه اللامع اللماح !

وكانت هداياه اليها كثيرة منوعة غالية نادرة منتقاة بعناية ! وكان بينها عقود وأقراط وأساور وخواتم من اللؤلؤ والجواهر الثمينة الأخرى ، وقد وضعت كلها فى علب جميلة من الأبنوس المفضض أقفالها من الذهب ثم وضعت هذه العلب فى ثلاثة صناديق من الجلد قرمزية اللون ، يحيط بكل منها فى كل صندوق ألوان من الثياب الحريرية والدمشقية والادوات

والتحف الثمينة بين أمشاط من عاج منقوش، وأزرار ذهبية ولؤلؤية وفراء من مختلف الأنواع والأحجام والألوان • وغير ذلك مما يليق بجهاز عروس نبيلة •

ثم أقام الكونت لودرون حفلة لاعلان خطبة جولييت له ، استمر الاستعداد لها بضعة أيام ، وأنفق فيها عن سعة وسخاء • ودعا اليها مع خطيبته وأبويها جميع آل كابلليتي وأنصارهم وأعوانهم ، وكثير من نبلاء المدينة وفي مقدمتهم حاكمها الجديد السيد البرانو ديللا سكالا ورجاله •

ولما أزف الموعد لانتقال المدعوين الى موائد الطعام والشراب ، جاء وصفاء القصر بماء معطر غسلت به جولييت يديها • وكان هذا الماء المعطر موضوعا في ابريق من الذهب يصبه منه على يديها وصيف ، بينما يقف وصيف آخر ليتلقى الماء تحت يديها في اناء من الذهب أيضا ، وآخر يمسك كميها حتى لا يبلهما الماء الا بمقدار ! ثم جلست مع خطيبها أمام اناء واحد كالمعتاد • واستمر المدعوون يأكلون ويشربون من العصر الى الفجر ، ولم تنطق جولييت بكلمة طول الحفلة •

اكسير الأمل

خفت الرقابة المفروضة على جولييت بعد تلك الحفلة ، فانتهزت هذه الفرصة وتسللت خارجة من القصر ، قاصدة دير الآباء الفرنسيسكانيين ، بعد أن تنكرت في ثوب خادمة والتفعت بمئزر غطى كتفيها ووجهها ورأسها

وخف الأب لورنزو لاستقبالها ، فابتدرته قائلة :

ـ أدركنى يا أبى !٠٠ ماذا أصنع ؟٠ لقد حددوا زفافى بعد أيام ، وانك لتعلم انى زوجة لروميو المنفى فى مانتو ، وما كنت لاقبل أن يدنسوا ما بيننا من رباط مقدس ، ولهذا جئت أستشيرك فيما أصنع !

ولم يكن الأب لورنزو قد علم شيئا عن ذلك الزواج الجديد ، لانقطاعه الى شئون الدين والعبادة واستخراج الادوية من النباتات والعقاقير ٠ ومن هنا أذهلته المفاجأة فلم يحر جوابا ، وواصلت هى كلامها فقالت :

ـ لا شيء غير الموت يخلصنى من هذا المأزق :

فأجفل الراهب الشيخ وقال لها :

ـ ثوبى الى رشدك يا بنية ٠٠ ان الله لا يريد لابنائه الموت !

فقالت : « اذن ٠٠ قل لى ماذا أصنع ؟ »

ففكر قليلا ثم نظر اليها ويده على لحيته وقال لها :

ـ هناك أديار كثيرة تستطيعين أن تعيشى فى أحدها تصلين وتتعبدين مع من فيه من أخوات راهبات تقيات نقيات ٠

فقالت متبرمة: «لكنى متزوجة، فخير لى أن أموت وأن ينتظر جسدى تحت التراب ذلك الذى صار يملكه أمام الله »

فبدا القلق والأسف في وجه الأب لورنزو ، ثم التفت اليها فجأة وقال لها وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة :

ـ انتظرى قليلا ياابنتى٠٠ عندى لك دواء ناجع كفيل بأن يحول دون زفافك الى من لا يمكن أن يكون زوجك !

ثم تركها راكعة تنظر اليه بعينيها الدامعتين ، وما لبث قليلا حتى عاد ومد اليها يده بزجاجة صغيرة وهو يقول : « هاك يابنية الدواء المطلوب »

فتناولتها منه بيد مرتجفة وتنهدت ثم قالت :

ـ حسنا !٠٠ شكرا لك ياأبى ٠٠ هل أتجرع هذا السم الآن لأموت فى هذا المكان المقدس ؟!

فحدجها بنظرة عتاب وقال لها :

ـ لا تتفوهى بمثل هذا الكلام ، انك بهذا تخالفين وصايا الله · لقد خلصت نفسك المريضة بالحب من الخطيئة ، وهأنذا أخلص جسدك ، فهذا الذى فى الزجاجة اكسير اذا شربتهفسرعان ما تستغرقين فىغيبوبة لايشك من يراك أثناءها فى انك ميتة · وتستمرين كذلك ثلاثة أيام كاملة ·وعلى هذا ليس عليك الا أن تتجرعى ذلك الاكسير قبيل زفافك غير المشروع ، فلا تمضى دقائق حتى يعتقد الجميع انك فارقت الحياة ، وسيدفنونك خلال ذلك فى مقبرة آل كابلليتى القائمة وسط مقبرة الدير خارجهذه الكنيسة· وحينئذ آتى أنا اليك هناك وانقلك إلى هنا· ثم اصطحبك متنكرة فىسفرنا القريب الى مانتو حيث نحضر مجمع الرهبان الذى سيعقد فيها ، وأسلمك الى زوجك هناك !

ولم تتمالك جولييت عواطفها فانفجرتباكيةلفرط اغتباطها بالخلاص، ثم قبلت يد الراهب الشيخ مكررة شكرها له وثناءها على ورعه وتقواه ، وعادت الى القصر دون أن يشعر أحد بدخولها أو خروجها ·

***

وفى اليوم التالى أرسلت جولييت مرضعها أوزيبيا الى الدير تستقدم اليها راهبا كان قد التحق به حديثا وعهد اليه فى كتابة المزامير وما اليها، وأملت عليه خطابا لترسله الى روميو قالت فيه :

ـ « عزيزى روميو ·· ان السماء لم ترض أن أصير زوجة لذلك الكونت الأحمق السخيف ، فقد أعطانى الأب لورنزو اكسيرا لأتناوله قبيل اتمام ذلك الزواج الذى لا يرضى عنه الله ، وحينئذ يحسبنى الجميع فارقتالحياة، ثم يدفنوننى فى مقبرة الآباء الفرنسيسكانيين ، وهناك أفيق من غيبوبتى فى اليوم الثالث · وهو يوافق اليوم العاشر من الشهر الحالى · فعليك أن تحضر الى فيرونا وتأتى الىهناك فى ذلك الموعدلكى نغادر المدينة معا ونعيش فى أى مكان حسب شريعة الله ، بعيدا ممن يريدون أن يحولوا بظلمهم دون تنفيذ ارادته »

ثم جاء تاليها أوزيبيا بأخ لها فى الرضاع يدعى (بيبو) وهو كهل ثقيل السمع واللسان فيه سذاجة ملحوظة · فكلفته الذهاب الى هانتو وتسليم الخطاب الى روميو مونتيكى هناك ، فتناول الخطاب وأومأ مطيعا وانصرف به وهو يقول « سيكون عنده قبل مساء الغد ! »

الفصل التاسع

اللقاء الأخير

زفاف إلى الموت

حرص السيد كابلليتى والكونت لودرون على ان يكون الاحتفال بزفاف جولييت أفخم وأروع ما شهدت فيرونا خلال تاريخها الطويل من احتفالات

ومنذ صباح ذلك اليوم اخـذت أجراس الكنـائس تدق دقات الابتهاج ، واختشد فى ميدان الكنيسة جمهور كبير من أهل المدينـة وضواحيها لمشاهدة موكب العروسين ، وعهد الى عشرات من الحراس بالمحافظة على النظام

وأخذ قصر كابلليتى زخرفه ، واقيمت الزينات داخله وخارجه على طول الطريق الى الكنيسـة ، وأخذ المدعوون يفـدون اليه زرافات ووحدانا وكلهم فى أفخم الثياب وأغلاها . وهنـاك فى احدى القاعات الكبرى بالطابق الاول عرضت الهدايا النفيسـة التى قدمت للعروس ، وبينها هدايا زوجها وأبويها وأصدقاء أسرة كابلليتى . ووضعت هـدايا الحكام على حدة تتوسطها هدية السيد البرانو ديللاسكالا حاكم المدينة ، وهى مؤلفة من سلسلة ذهبية بها حبات كبيرة من اللؤلؤ وأحجـار من الياقوت ، وقطعة من الصليب المقدس لا يموت من يمسـها الا وهو فى نعيم !

ولزمت جولييت غرفتهـا حتى العصر ، ثم جـاءت الوصـائف فالبسنها ثياب العرس باشراف والدتها وأوزبيا ، وكان الكونت لودرون فى انتظار موكبها أدنى السلم على رأس نخبة من المدعوين والمدعوات فاستقبلها مبتسما فاتحا ذراعيه ، فأمسكت ذراعه وسـارت بجانبه فى مقدمة الموكب الى الكنيسة ، بينما اصوات الابواق ورنات الأجراس تدوى فى الارجاء مختلطة بأنغام الموسيقى وهتافات الجماهير المحتشدة على طول الطريق

وكانت جولييت قد غافلت أوزبيا قبل هبوطها السلم وتجرعت الأكسير الذى أعطاها اياه الأب لورنزو ، فما كادت تبلغ باب الكنيسة حتى شعرت بأن مفاصلها تتراخى ، وبأن ضجة الاحتفال تخفت قليلا قليـلا حتى كادت تتلاشى ، وغامت المناظر أمام عينيها ، واشـتدت صفرة وجهها ، وأبطأت دقات قلبها . ثم ترنحت وخرت ساقطة على عتبة الكنيسة بعد أن افلتت يدها ذراع الكونت المتأنق المتظرف المتفلسف ، فوقف يحملق فيها مشدوها وقد استولى عليه الفزع والاضطراب !

وسكتت أصوات الابواق واجراس الكنائس ، وساد الوجـوم جميع الحاضرين والحاضرات ، ثم دعى كبار اطبـاء المدينة على عجل

ففحصوا جثة الفتاة فحصا دقيقا ، ثم قرروا نقلها الى قصر أبيها ، حيث فحصوها هناك مرة أخرى . ثم تشاوروا فيما بينهم ، وتقدم كبيرهم فانحنى أمام السيد كابلليتى وزوجته وهما واقفان يتبادلان النظرات فى ذهول وقال لهما :

ـ لقد ماتت العروس متأثرة بفرحها الشديد !

وهكذا خيم المساء على فيرونا وقد تبدل فرحها ومرحها حزنا وكآبة وانقباضا ، وجللت الزينات المقامة بالسواد ، ودقت أجراس الكنائس دقات الحزن ، وأقيمت الصلوات فيها كلها على روح العروس الشابة النبيلة الحسناء .

وخرجت المدينة كلها فى اليوم التالى تشيع جنازة جولييت ، ومشى والدها فى طليعة المشيعين ومنظرهما الحزين يفتت الأكباد ، وبجانبها الكونت لودرون مرتديا ثوبا أسود حرص على أن يبدو فيه أكثر أناقة منه فى ثوب الزفاف !

ولم تنقطع أوزيبيا الحنون عن البكاء والنحيب حتى انتهى الاب لورنزو من كلمة التأبين المؤثرة التى ألقاها أمام جثمان الفتاة المسجى فى التابوت قبل أن يوضع فوقه الغطاء ، ثم يحمل الى حيث ترقد بجانب من سبقوها من آل كابلليتى فى مقبرة الآباء الفرنسيسكانيين !

***

لم يستطع روميو حين غادر فيرونا منفيا أن يأخذ معه الا قليلا من المال . وكانت هناك قافلة تجارية صغيرة فى طريقها الى مانتو ، فقبلت أن يصحبها وخصصت له دابة ركبها . ولكن القافلة ما كادت تقطع بضعة أميال حتى خرجت عليها عصابة من قطاع الطريق ، ففتكت بأرواح بعض أفراد القافلة واستولت على جميع السلع والأموال والدواب . ولم يملك روميو ولا أحد غيره دفاعا عن أنفسهم ، اذ لم تكن معهم أسلحة كافية ، بينما افراد العصابة كلهم مدججون بالسلاح ، ثم هم الى ذلك كانوا يعملون لحساب دوق ليناجو .

وأبى روميو أن يلجأ الى أحد الأديار ، أو أن يقترض مالا من أحد المرابين ، أو أحد النبلاء ، فتوجه الى مانتو ماشيا ، وآثر أن يكسب رزقه بكده فيها ، فالتحق هناك بالعمل فى محل لصنع السلال ، كان يديره رجل طيب القلب ، يعول أسرة كثيرة العدد . وقد أعجب بحسن خلق الصانع الجديد ، واخلاصه لعمله ، وقناعته بالقليل الذى يحصل عليه . وكثيرا ما كان يطريه قائلا :

ـ حقا .. انك لأهل لأن تكون من أبناء النبلاء !

وفى مساء كل يوم كان روميو يمضى بعد فراغه من عمله الى مدخل المدينة ليرصد القادمين اليها من فيرونا ويسألهم متلهفا عما تم فى أمر جولييت .

ولم يكن هؤلاء من يستطيع معرفة شخصه ، اذ كانت هيئته

قد تغيرت لفرط تأثره بفراق الحبيبة التى هى زوجته أمام الله ، وقد علا التراب وجهه والثياب الريفية البسيطة التي يرتديها . وكانت الانباء التي يستطيع الحصول عليها تبدو متناقضة ، مما زاد فى قلقه وحيرته وأساه !

وشاء القدر أن يحل وباء الطاعون بمدينة مانتو فى تلك الايام ، فساد الفزع والرعب أرجاءها ، وهاجر منها كل من استطاع المهاجرة من أهلها فرارا بأرواحهم من ذلك الوباء الفتاك ، بينما بقى الفقراء والضعفاء ليهلك منهم عشرات في كل يوم وكان بعضهم يسيرون وأكفانهم ملفوفة حول اجسامهم مخافة أن يدفنوا عراة . كما كان بعضهم يمضون الى المقابر بأنفسهم ليسهل دفنهم حين يموتون !

ولم تفد جهود الأطباء العظيمة لرد عادية الطاعون المغير ، فبقى يفتك بالباقين من أهل المدينة فى غير رحمة ولا اشفاق ، برغم توزيع مختلف الأدوية والعقاقير ، ورش المنازل والطرقات بالروائح العطرية وغيرها ، وتطهير أثواب الموتى والأدوات التى كانوا يستعملونها ، وغير ذلك من وسائل الوقاية والعلاج فى تلك الأيام .

وجاء «بيبو» الى مانتو برسالة جولييت الى روميو ، فى الوقت الذى صدرت فيه تعليمات الحاكم المشددة بمنع دخول اى انسان الى المدينة او خروجه منها . وكان أشد ما حز فى قلب روميو أنه رأى بعينيه ذلك الرسول عند مدخل المدينة يستعطف الحراس أن يسمحوا له بالدخول كي يسلم رسالة عاجلة اليه . فلم يشك فى أن هذه الرسالة من جولييت ، وانضم الى الرسول فى التوسل والاستعطاف ليسمحوا له بتسليم الرسالة . ولكنهم أصروا على تنفيذ التعليمات وحاولوا بينهما بالقوة ، فعاد الرسول بالرسالة الى فيرونا مسرعا مخافة أن يدركه الوباء !

لقــــاء الحبيبين

عاد روميو الى مدخل المدينة فى اليوم التالى ، يدفعه الأمل الكاذب فى أن يعود بالرسالة الى هناك . وفيما هو يتأمل الطريق وعينـــاه لا تكادان تبصران لفرط غمه واكتئابه ، لمح الحراس يشيرون الى رجل قادم نحوهم على حمار محمل ببعض السلع ويأمرونه بالرجـــوع ولكنه لا يمتثل .

وكان الرجل يصيح بالحراس قائلا :

ـ ماذا جرى فى الدنيا ؟ . لقد دخلت فيرونا أمس فلم أجـد بين أهلها على كثرتهم من يشترى شيئا من بضاعتى . فقد كانوا جميعـا مشغولين بتشييع جنـازة عروس هى ابنـة كبير منهم ، وقد ماتت المسكينة متأثرة بشدة الفرح .

ودارت الارض بروميو ، وترنح للسقوط لولا أن تمالك توازنه ثم صاح بالرجل سائلا وهو يرتجف ولسانه يتلجلج :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟.. الم تعرف اسم تلك العروس ؟

ونظر الحراس الى روميو متعجبين ، بينما واصل التاجر كلامه فقال :

ـ اسمها جولييت .. كابلليتى .. واسم زوجها ..

ولم يسمع روميو شيئا بعد ذلك ، اذ وقع مغشيا عليه ، فلما أفاق كان الحراس قد اضطروا ذلك التاجر الى الرجوع بالقوة من حيث جاء !

وقال روميو لنفسه بعد أن احتوته غرفته المتواضعة :

ـ ماتت جولييت ، ماتت شهيدة الحب والوفاء .. ومن عجب أن يظن الفيرونيون أنها ماتت متأثرة بشدة فرحها بذلك الزفاف. ولكنى أنا زوجها أمام الله أعلم يقينا أنها ماتت متأثرة بما أصابها من الهم والحزن وهول ما هموا بارغامها عليه من زواج لا يقـره الله ولا يرضاه القلب والضمير !

وبقى يبكى وينتحب حتى انتصف الليل ، ثم نهض فجأة واستل خنجره وهم بأن يطعن به قلبه ، ولكنه عاد فأغمد الخنجر وقال يحدث نفسه :

ـ كلا .. لا اريد أن اموت بعيدا عنها .. يجب أن اموت هناك بجانبها !

ثم تذكر أن في مانتو طبيبا يهوديا ساحرا ، اشتهر بخبرته الخاصة بأنواع السموم الفتاكة ، فنهض من فوره وغادر غرفته ، ومضى يضرب في شوارع المدينة وازقتها الملتوية المظلمة حتى وقف بباب منزل صغير مؤلف من طابقين وطرق الباب بقوة قائلا : « أفتح أيها اليهودي ! »

وهنا أطل المعلم الياس من النافذة ورد عليه بصوت مرتجف قائلا:
ـ سأفتح يا سيدى .. هانذا أهبط السلم .. فاغضض من صوتك .

وبعد دقيقة كان المعلم الياس قد رفع المزاليج وفتح الاقفال العديدة التى أحكم بها غلق الباب من الداخل .

وحاول الرجل أن يتلكأ ، ولكن روميو استل خنجره وهدده به، فلم يسعه الا أن قاده الى حجرة صغيرة ، بدت على جدرانها المتآكلة الرطبة فى ضوء المصباح الخافت سلاحف معلقة وثعابين وجماجم بشرية وأوعية زجاجية تلمع بجانب موقد تشتعل فيه النار ، وقال الطبيب لروميو وهو يتناول بيده حقا صغيرا فوق رف هناك :

ـ هل قلت لك اربعة ريالات يا سيدى . ان المسحوق الذى فى هذا الحق لا يقدر بمال ، ولكنه لا يستعمل الا خارج هذه الدار !

وبعد دقائق كان روميو فى طريقه عائدا الى فيرونا ، ولم يتوقف عن السير الا بعد أن هده التعب والحزن فى أصيل اليوم التالى ، فتمدد على الارض فى أحد الحقول ، ثم نهض بعد الغروب بقليل فاستأنف رحلته !

ودخل المدينة فى عتمة المساء ، ومضى من فوره الى مدفن آل كابلليتى وكان باب المدفن مفتوحا طبقا للتقاليد التى تقضى بألا يغلق الا بعد أسبوع من دفن الميت . وكان معه سراج صغير يضاء بالزيت فأشعل فتيله بقداحته ، ودخل المدفن والسراج فى يده فاذا هو حجرة واسعة جدرانها من الحجر المنقوش ، وفى وسطها تابوتان مفتوحان متجاوران ، وبكل منهما جثة يغطيها كفن ثمين عليه شعار آل كابلليتى .

ومد روميو يده فرفع أحد الكفنين عن وجه الجثة التى يغطيها، ثم قرب السراج منه فتبين فيه وجه تيبالدو ، فأعاد الكفن الى ما كان عليه مسرعا . ثم اتجه الى الجثة الاخرى فرفع الكفن عنها وقلبه يخفق بشدة وعيناه تدمعان !...

وكان عجبه شديدا ، اذ رأى وجهها يفيض بابتسامة عذبة ولم يطرأ عليه أى تغيير ، وكأنها فى اغفاءة لذيذة .

وزفر زفرة حرى ، ثم اخرج المسحوق السام الذى ابتاعه من الطبيب اليهودى فى مانتو . وتناوله كله مرة واحدة فأحس بأن نارا شبت فى حلقه وصدره ، ولكنه تجلد وانحنى على جثة جولييت المسجاة أمامه ، ثم امسك رأسها بيديه المحمومتين وطبع على شفتيه قبلة طويلة ، ثم تمتم قائلا :

ــ الآن .. يلتقى الزوجان الحبيبان . ولن يفرق بينهما احد !

وكانت عيناه عالقتين بفمها المبتسم ، فأخـذه العجب اذ رأى الابتسامة تتسع رويدا رويداً ، ثم رأى ذراعى الزوجة الحبيبة الميتة كأنما تتحركان !

وحسب أول الأمر ان ذلك ليس سوى وهم صوره له السم الذى تناوله ، ولكن الحركة استمرت تدب فى جسـد جولييت ، وأخـذ صدرها يعلو ويهبط ، فصاح قائلا :

ــ جولييت .. حبيبتى جولييت .. ماذا أرى يا الهى ؟!

وجن جنونه اذ فوجىء على أثر ذلك بجولييت وقد استوت جالسة فى تابوتها ، ثم فتحت عينيها وأدارتهما حولها ، فلما اسـتقرتا على وجهه ازدادت ابتسامتها ، ثم تكلمت وخاطبته بصوتها العذب الحنون قائلة :

ــ أهذا انت يا روميو ؟.. لقد كنت موقنة بانك ستجىء فى الموعد المحدد أيها الزوج الوفى الشجاع !

وتراجع الفتى مذعوراً ، ثم عاد فاقترب من الفتاة الجالسة أمامـه تنظر اليه وتبتسم ، وقال وهو يغالبه دهشته وحشرجة الموت الذى بدأ يعتمل فى صدره مع السم السارى فى دمه :

ــ جولييت ؟!.. كيف هذا ؟! ألست ميتة يا جولييت ؟!

وكان جوابها أن قفزت الى جانبه وطوقته بذراعيها وراحت تغمر خديه وشعره وعنقه بالقبلات قائلة :

ــ الم اقل لك فى خطابى ؟!.. لقد أماتنى الأب لورنزو بالاكسير الذى أعطانيه . ولكن هذا الموت لم يكن الا نوما ... وهـأنذا قد استيقظت منه كما وعدنى ووعدتك فى خطابى ، وعما قليل نغادر فيرونا ونحيا زوجين حرين سعدين ، لا نخشى من رقيب الا حسيب !

وازدادت الحشرجة فى صدر روميو ، وقال لها :

ــ اقتربى منى لتسمعى .. انتى أموت الآن .. ان خطابك لم يصل الى ، وقد جئت الى هنا موقنا بانك مت حقيقة ، وتريت أن ألحق بك فتناولت سما اشتريته من طبيب يهوى فى مانتو !

وهنا صرخت جولييت صرخة عالية ، وقالت وهى تنشج بالبكاء :

ــ روميو ؟ حبيبى روميو ؟ لا تمت يا روميو .. اننى لا أحيا الا لاجلك .. آه يا حبيبى !.. آه يا زوجى العزيز .. لقد صحت النبوءة اذن فهذا رجل من الشرق اخذ منك مالا ، ثمنا للشر الذى انزله بك !

ثم تشبثت بجسـمه الذى ترنح وسقط بجانب جدار القبر ، وراحت تضمه الى صدرها وتمطره بقبلاتها قائلة :

ـ كلا .. كلا .. لن تموت يا روميو ، وسـتحيا لتبقى بجانبى !

وفتح فمه وجاهد حتى قال فى صوت متقطع خافت :

ـ ليس هذا بارداتى ولا بارادتك يا جولييت ، انها ارادة الله !

ثم تراخت ذراعاه ، وتدلى راسه على صدره ، وساد جسمه الخمود !

وراحت جولييت تناديه ، وتقلب وجهه وذراعيه ولكن دون أية فائدة !

وفيما هى كذلك لمست يدها الخنجر المعلق بمنطقته فاستلته من غمده ، ثم قلبته بين يديها ، وغرست نصله حتى نهايته تحت ثدييها

ولما احست أن الخنجر اخترق قلبها ، واخذ الدم يصعد الى فمها ، التصقت بجسده الممدد أمامها ، ثم انطرحت عليه ، والصقت فمها بفمه . وابتسمت لسعادة اللقاء الاخير !

ولما رأى الأب لورنزو هذا المشهد المروع ، استولت عليه الدهشة واخذته الرعدة . ثم بعث يدعو آل كابلليتى وآل مونتيكى وحاكم المدينة فجاءوا جميعا الى المقبرة ذاهلين لا يكادون يصدقون ذلك النبأ الغريب الذى سمعوه

وبعد أن انتهى الأب لورنزو من تفصيل الأمر لهم بين الزفرات والأنات وفرط التأثر من الجميع ، قال له الحاكم :

ـ ايها الراهب الجليل ، لتطب نفسك فقد أديت الواجب وارضيت الله !

ثم التفت الى السيد كابلليتى والسيد مونتيكى وقال لهما :

ـ تلك هى نتيجة العناد والتشبث بالنزاع والخصام !

وبكى الوالدان الحزينان ، وتعانقا ، وشاركهما البكاء جميع الحاضرين .

واحتفلت فيرونا بدفن الزوجين الحبيبين فى تابوتين متجاورين بمقبرة الدير وسط فناء هادىء صغير تحف به أشجار السرو ، والأزهار والرياحين

وما جاء الربيع حتى كان ضريحا الحبيبين قد غطتهما خميلة كثيفة من الورود والأزاهير ، وامتد منهما غصنان ناضران تعانقا فوقهما والتف كل منهما بالآخر ، وكانت هذه الظاهرة موضع التأمل من رهبان الدير وزوار الضريحين . وعدوها دليلا على اتحاد روميو وجولييت فى الحياة وبعد الممات !

فهـــرس



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤



العدد ٣٦ الثمن ١٦ قرشا